زمارة في سفارة

قصص قصيرة

- **زمارة في سفارة** / قصص قصيرة
- **نازك ضمرة** / مؤلف من الأردن
- **الطبعة الأولى** : 2010

حقوق التوزيع

دار وَرد الأردنية للنشر والتوزيع

P.O. Box 927651 Amman 11190 Jordan
Tel. +962 6 5606 263 - Fax + 962 6 5606 362
E-mail : wardbooksjo@yahoo.com

- الإشراف الفني : **محمد الشرقاوي**
- تصميم الغلاف : **بهاء الشرقاوي**

- رقم.الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : 2010/5/1725
- ISBN 978 - 9957 - 522 - 43- 4 (ردمك)

للتواصل مع المؤلف

ص ب ٩٧٩٧ – عمان ١١١٩١ – الأردن

العنوان الإلكتروني: nazekdhamra1@hotmail.com

تجدون كتبنا على الموقع التالي

www.wardbooksjo.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف . لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من المؤلف.

نازك ضمرة

زمارة في سفارة

قصص قصيرة

الفهرس

كلمة المؤلف بالعربية ٧
جن دراي ٩
جارتنا وحارتنا ١٧
فلات تاير ٢٧
كاهن أصغر ٣٥
الخمسون طاروا ٤١
عزام يقول : عادي ٤٧
تزوج بعدها بأسبوعين ٥٣
آيسكريم وتمر ٦٥
فراشة ٧١
رحلة طويلة ٧٥
أبو نوارة ٨١
أين أمه ٨٧
يونس يمشي هادئا ٩٣
زمارة في سفارة ٩٧
أقصر الحلول ١٠١
ذئب ١٠٥
تطور ١٠٩
لماذا لم نصحبه ١١١

طال الحلم ١١٧
طاعة عمياء ١١٩
زارني حنون مجيد ١٢٥
أهل بيت سيرا حصدوا الذرة ١٣١
كلمة المؤلف باللغة الانجليزية ١٣٩

كلمة المؤلف

مع حفظي الكثير من الإبداعات العربية القديمة في طفولتي، إلا أنني لم أجرؤ على الكتابة الإبداعية مبكراً، وحين نضجت بقيت حبيس مخاوفي من النقد الخارجي حتى سن متأخرة، وكقارئ لكتابات طه حسين والعقاد، كنت أجد تعبيري وتحصيلي اللغوي ضئيلاً بالنسبة لهما. ثم إن تحملي مسئولية تربية إخواني وأخواتي الصغار حصرني في معركة الحياة منذ سن مبكرة.

أستعير مقولة الأستاذ الدكتور طه وادي رحمه الله (أن القصة هي ديوان العرب)، وأضيف أن القصة والرواية هي تأريخ ما لم يكتب في كتب التاريخ، لكن بأسماء مستعارة أو محرفة.

أحبطني الكثير من الكتاب والأدباء والأقارب بثرثراتهم وملاحظاتهم، ولم أجد أحداً يشجعني غير والدي رحمه الله، وفي العام ١٩٩٢ تخطيت مرحلة اللاعودة في طريق الكتابة الأدبية، التقيت بالناقد العراقي ياسين النصير، فاعترف لي بأنني أديب وقاص حقيقي، رافقني لشهور قليلة أطلعته على ما يقارب العشرين قصة مما سبق وكتبت قبل العام ١٩٩٠ فأبدى إعجابه بها، وقدم لي نصائح نقدية مخلصة، واقترح عليّ الإسراع بنشر ما توفر لي من قصص في كتاب خاص، فكان كتابي القصصي الأول (لوحة وجدار) عام ١٩٩٤ وضم ثلاثين قصة. وأضيف أن السيد النصير، كان يأخذ قصصي مني ويوصلها إلى مسئول جريدة (صوت الشعب) الأردنية، وكان وقتها الشاعر

والروائي إبراهيم نصر الله، وصارت قصصي تنشر في الصحيفة نفسها باستمرار، بعدها بدأت أكتب في صحف أردنية أخرى، وأرسل بعضها لمجلات عربية مختلفة، غرس والدي فيّ حب السفر والمغامرة، حيث ظل يقول: سافر ففي الأسفار سبع فوائد ... لهذا سافرت إلى مختلف أرجاء الدنيا في أوربا وآسيا وأفريقيا وأمريكا، وساعد ذلك على اختلاف أسلوب كتابتي، واتساع معارفي وخبراتي، لم أعرف الاستقرار في حياتي، ولا ارتبطت بأرض واحدة بعد اضطراري للإقامة بعيداً عن قريتي بيت سيرا في فلسطين. ... بصدور الكتاب التاسع حاولت تلخيص أحاسيسي هذه المرة على غير عادة بهذه المقدمة، آملاً أن نلتقي ثانية في كتب أخرى في أعوام طويلة تالية.

نازك ضمرة

(الدكتور طه وادي رحمه الله توفي عام ٢٠٠٩ وظل يشغل عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة لزمن طويل، والف مجلداً ضخماً بعنوان (القصة ديوان العرب) ضمنه نماذج قصصية من كل دولة عربية تقريباً)

جن داري[1]
JINDARI

يومها أسحب كتاباً عن الرف "مصاطب الآلهة" لجنداري (لمحمود جنداري لمن لا يعرفون) ينظر الناس والمارة لي باستغراب، في (داندردي) ، سمه مقهى، ملجأ لجلي الهموم، وإن أردته مطعماً، أو لشراب خمر لذة، فالوقت بعد الظهر وقبل العصر، نظارات القراءة على عيني، أنفرد بطاولة صغيرة في منتصف الصالة، لم أجد مكاناً في أحدى الزوايا، وهل للمكان زوايا؟ جميع جدرانه من الزجاج، فإن لم يتأمل الرواد الداخلون ما تقرأ، فسيراك المارون والحالمون، وحتى الحائمون خارج جدران المكان الزجاجية، ربما بفضول الحيارى واليائسين، أو لاستكشاف بؤرة جديدة للهو، باحثين مهدّ فين يرقبون، كله فتنة تشبه الخيال داخل المكان، يتشاورون، يشيرون ويؤشرون، الأنثى بداية أي موضوع في الداخل أو في الخارج، يحددون مكاناً لجلوسهم -إن وجد- داخل المكان ، والمتع هنا وفيرة للشباب والمنفقين والمنافقين بلا حدود، والمراهقين العابثين المجربين واليائسين والمضللين والخانع والموعود، والمخلصين الصادقين والماكرين، جنداري يتوسط المائدة الصغيرة، ثاني اثنين يتململ إذ هما في داندردي، لا يدري من أين يبدأ على استحياء، أو كأن قميصه... للأسف كهل، شيئ حاضر غائب أنت يا جنداري، والوحيد يحاول أن يبدو كهلاً، زادت سنه

١- نشرت في الصفحات الثقافية لجريدة (طريق الشعب) العراقية البغدادية بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني عام ٢٠٠٥

عن الستين، والتفنن في الجنون تراث أصيل هاهنا، رصّوا الرفوف بقوارير من كل لون وشكل، أو من عسجد حسبتها لؤلؤاً مصفوفا، وقلائد تتماوج، تتدلى أو تتأرجح على أطباق الصدورالشهية المكشوفة، تطوق أعناق حسان وأرسغهن، وحتى كواحل الطويلات منهن، أتسرب وأتداخل في أعماق الأعين الحالمة، تشاهد كؤوساً تحتضنها الأيدي الحاكمة، قال أحد العارفين الخبراء، أو الخبثاء، لا توجد في الدنيا امرأة غير جميلة، المهم أن تحسن اللبس والعرض، وجنداري يتمنى أن يقول، ذوات الخمسينيات أدق وأنق في الاستعراض، والرحيق الحلو في الأزهار الطوال يجذب النحل من أميال، لا عليك يا إبن جنداري، فأغلب المستطلعين فراش يبحث عن نيران متوهجة، أطياف ملائكة تقمصت بشراً، وأي بشر؟ وبجميع الأشكال والألوان في كل متر في المكان، صرت مهيأً للشراب والطعام والهيام، وفنون نادرة وموسيقى وصخب حولك ومن كل اتجاه، لا تدري أين تقرّ عيناك.

أبسط كتاب المصاطب على منضدتي الصغيرة، تحت شهاب ساطع، كل شيء مدروس، الأنوار حالمة تحملك إلى ما تريد وما لا تريد، أحاول التآلف مع كتابي العربي الذي أقرأ، والموسيقى الغربية التي أسمع، وكأس شرابي الشامخ يسمو متعالياً في شموخ الواثق من نفسه، تتداخل السيمفونية بالأشياء المتحركة أمامك وتتكامل حولك وخلفك، تثبت لك عين من كل اتجاه، أحلم وأنا أحلم، يحاول جنداري اختطافي لهذيانه، لكنني لم أنشغل عن الفضوليين المستطلعين والكارهين، حيرني جنداري واسم المكان، يشارك جنداري أنامل ترسم صدراً أشعله رمان مرصوص، ولماذا داندردي سمّوه، تعبير صعب على اللفظ على الأقل

لمثلي، يريد العاشقون أشياء لا نفهمها - داندردي - زادني حيرة وانشغالا مع نبش جنداري في المنخور، مساطب الآلهة وداندردي حصتي من عذاب هذا اليوم، التقيت "محمود جنداري" مرتين، إحداهما في بغداد، والأخرى في عمان، كلتاهما كانتا على عجل، لم نتحدث طويلا، ولم نطرق أي موضوع محدد، لقاء تعارف أو للسلام عبوراً، لقاء بغداد كان بناء على طلبي، ولا أذكر من كان يقف معي في تلك اللحظات، وربما القاص حنون مجيد، أو هو حسب الله يحي، أتقمص الكهولة العفيّة، لكن الشيخوخة تغلب، طلبت من رفيقي أن يقدمني لجنداري للتعرف والتعارف، أشار له ولفت انتباهه، تقدمنا، تلاقينا، تصافحنا، تعارفنا، وافترقنا بعد دقائق خمس، أدار بعدها إحدى الحلقات النقدية في مربد ذلك العام، ربما كان لديه الكثير ليقوله، ومساطب الآلهة تعزز فكرتي وأنا هنا في داندردي، أتعبتني مساطبه، وأي آلهة تلك التي تحز رقابنا أو تطوقها؟ حتى في داندردي، وفي أعصابنا وصدورنا وعقولنا وكل ما نملك، وقت كلينا كان محدودا في خريف عام أربعة وتسعين من القرن الماضي، قص النسيان الكثير من أحلامنا أيامها.

"مصاطب الآلهة"جهد مضغوط لإبداع مقصود، أراد القاص جنداري أن يتحدانا بتفرده، يأمل أن لا يلحق الخراب ببيته وحتى ببيئته، يجمع ويفرق، يجرب ويخرّب، يبتكر ويتفرد، يتمادى فتضيع آثاره في النكهة المشعة من الكؤوس المتعالية حولنا ومما أسفل منها، تلك المتميزة، يبتلع شفتيها أو هو غوص بلا خوف، وركب الأربعة متداخلة، أريد أن أواصل المشوار مع مساطبك يا جنداري، لكن يد ه وأصابعها وعينيّ، وكأسهما الشفاف المفرغ، أسقنيها بأبي أنت وأمي، أصبحت يا

جندار همي، لا يتقن كل طباخ تركيب مواده ومزجها، ولا نضمن إطفاء الحرائق في الوقت الصحيح.

محمود جنداري يبلور ثقافته المتمحورة، كاد يحاصرني كما حصر نفسه في بوتقة العراق، وبعض مواطن العرب ومن سكن قبلهم أو بعدهم - تسكع وحب وحرب وأحلام مرعبة وخراب، يتمنى أن لا يسكن أحد غريب بعدهم ولا حتى معهم - العصفور (زو) يرفرف قرب أذنيّ، وفي داندردي يجلب معه كل العصافير بجمالها وهيبتها وجنونها و كأسي الفارعة مفرغة، هرج ومرج في الداخل وفي الخارج، حولي وأمامي وفوقي وربما تحتي، نسيم يحملني إلى كل اتجاه، وكؤوس مارقة وأمواه، الطائر زو العجيب مايزال يحلق بأجنحة قوية، أوصلني دهاليز القصر العربي وبيوتاً حوله، هوى على الأسطح، يرقب ساحات الإماتة، نشاهد ما يجري بوضوح واستيعاب، أشهد على كل حدث تطرق له. تنبثق لي أجنحة ترفرف لكنها ضعيفة، لا يروقني التحليق في مجالاته، ليتني لم أصحبه، أراد أن يفجرنا من دواخلنا، أن يجعلنا أسطورة جديدة قديمة، يعيد الخلق بتشكيل غامض وبخطوط خاصة، صعبة طرقه ومساربه، والحياة عليّ أقسى ما تكون في سجني معه اليوم في داندردي.

يفرش بسطا، يستحضر أطيافاً، يبني طرقاً، يجمع أقواماً من كل الألوان، يحاول أن يخلق لنفسه أرضية جديدة ولنا، ينسجها ويطرزها مع ثرثرات الجدات، و بغموض الأساطير المحيرة، حكايات نادرة عصية على كل إنسان، والأسى على الزمن المهدور، مرارة مجيدة مجيّرة، تفنن يائس في غير فائدة ، أشرد من عوالمه محاولاً، لا أقوى على مقاومة التبجح في جمال مسفوح، لم يسعفني الصبر على الجمود، أشير للنادل

بكأس أخرى، وأسرح، أتحدى جنداري متسائلاً مستنكراً: أعطني دواء عربيا قديما ما زال ناجحا؟ اللهم إلا الكيّ بالنار، لكنه حارق مؤلم، وغير مضمون الفائدة، أنظر لشيخي وملهمي، لا أرى شبرا في جسده إلا وبه كيّ من نار، لم يشف من ألم عينه، ولا سلمت مفاصله وركبتاه ورقبته، كلها تيبست وتعطلت، و كلما نصحه أحد بنار أشدّ حتى يرتاح من آلام قادها، تيبّس لعشرين عاما قبل رحيله، وتعطلت لغة الكلام.

شهورعشر على اغترابي في أمريكا، لم أقرأ فيها شفعاً ولا وتراً من الصفحات بالعربية، حملت معي من الكتب والروايات والشعر والقصة بالعربية ما يكفيني عاما إن كنت نشيطاً، أو أعواماً طوالاً إن بقي حالي كالأمس، قرأت كل ما وقعت عليه يدي بالأنجليزية، شدتني محطات التلفاز والأنترنت، هدرت من الزمن ساعات وساعات حتى التخمة أو الاضمحلال بحثاً عن صديق حقيقي أو صديقة، أحسست فقراً وجوعا وبالملل، نسيت نفسي وخيبتي ، لكنني لم أنس أن أتمنى العودة لعمان.

ولجت مصاطب الآلهة اليوم، وألفيت نفسي أتجول في دهاليزها، أزداد لهفة لشرب المزيد، لا لتجلو الهمّ عني، ولا بد من سماع ما يحدث حولي في داندردي. رنين السكاكين يزداد حدة، والملاعق والشوك أشواك تدمع عيني، (الديسبوزابلز) والبلاستيك تعلو وتنزل بين الأفواه والأطباق، تستقر على المناضد، أو تملأ الحاويات السود، روائح الطعام الزائد الزكي توقظني من أحلامي، تثير شهيتي لكل شيء كغيري ومن غيري وللطعام، وبدرجة أقوى بكثير من طبائخ جنداري، الجوع كفر، وأي زاد أريد، يتزايد عدد الواردين والآكلين، والماصين والشاربين، والضامّين والمردفين والحاضنين، هل الجنداري في جحيم مكان ما؟

مثلي ياترى؟ ولقلة دراهمي صحوت، وتحت تأثير شدّ الأمراس تجمدت، أحمل معي بطاقة الشراء الآجل، طلبت أكثر من حاجتي، أصناف من أطعمة لم أتذوقها من قبل حتى ولم أسمع بها، مررّت حلقي المصاطب، أحقد على كل الآلهة بدءاً من أبولو وفينوس ورع وعشتار وحتى أهرومزدا وانتهاء بالذقون المسترسلة في توحش، هكذا هو الحال هناك، ما دمت تقضي حاجتك بالدين فلتكن حتى التخمة أو.. هو الجوع يا سيدي... ولماذا تجوع؟ فعلت مثلهم، أينما قرأت عن نوع جديد من الطعام اقصده، وإن افتتح مطعم جديد ارحل إليه وإن نأى، كرهت مؤونة جنداري يومها، لا تسمن ولا تغني من جوع، لم أتعرف على أي واحد منهم ولا واحدة، وماذا أكثر من مفردة غريب، وجوه جديدة كلها، وأين من شاهدتهم حين دخلت؟ ساعتان مرتا أو أربعة آلاف عام؟ راحوا كلهم، لكنهم الشيء نفسه، وأنا شيء إذن.. لا للراحة ولا للسكون، جري وحركة دائبة.. وبقسوة، حتى لو فوق طاقة الجسد، عربي يحب النوم والارتخاء، حتى جلجامش لم يغرق بحب أنثى بهية نقية، تعلم من مومس وبحث عن السهل المألوف، ما عدا استجلابه لصاحبه ربما...، أحب أن أنتظر والانتظار طبعي، وإن غداً لناظره قريب، وبقيت مثل السيف بعد موت الفارس... أو مثل سكينة بلاستك بنية أو سوداء أو صفراء، كتلك التي بين يدى ذاك العجوز، وجاء للمكان غيرهم أكثر، لم يطل تعارفنا يا جنداري، يخرج ثلاثة من داندردي ويدخل أربعة جدد، بعد أن جهز النادل مكانا لهم، ضحكت الطويلة ويده حول خصرها، تكاد أزرار قميصها القصير المشدود على جسدها أن تتقطع، محشوٌ بها كأنها بلا لباس، تشغلني موجة صدور مكورة جديدة وفي أيام صعبة، وما يقلقني

أن ذاك يقصر عمر القمصان، أويزيد من مبيعاتها، يغيب الكهل والشيخ والعجوز، وتنطوي المساطب، تضعف مقاومة الفتيان، فإما أن ينفقوا ما في الجيب أو تقرصهم آلام الحرمان، يرقبني النادل، يود أن يسأل عما أقرؤه لو كان لديه وقت، مصاطب، مصائب.. «مصاطب الآلهة»، مصائب بخصوصيتها، سمها قصصا إذا شئت، و «جنداري» قاص، والكل يشهد، لكنه نزف الكثير في مصاطب الآلهة، فيقطع أنفاسك، وقد يوقف أعضاءك المهمة هنا في داندردي، لا للتفكر ولا للتحليل إن كنت تريد، حتى لوكانت لديك العدة والاستعداد، نزف وعزف؟ أشاهد روح أبي فراس الحمداني تناجي روح أبي جندر، أسمعه شاكياً (أقول وقد ناحت بقربي حمامة) تعبت من الإثنين فوقع نظري على فتاة ترتدي بنطالا ضيقاً قصيراً مشدوداً ملتصقاً، فقلت مكملاً (أياجارتا هل تشعرين بحالي)، لكنني وقبل آقفاله أوراقه، أعترف أنه حقن في الكثير من المرارات، جرّعني هموما لا أقوى على لحسها، أرفع رأسي فألمح شابا آخر وسيما يتأخر عن زوجته أو صديقته قبل دخول الباب، تتمطى بنظرات ملونة ملعونة، تتسلط العيون المشرئبة على قوامها المشدود، لا تستر الملابس الصيفية الخفيفة أكثر من ثلثه، يدخن من سيجارته مرتين قبل دخول المكان، احتراما للنظام والمرتادين، ثم يلقي بالسيجارة في منفضة خاصة أمام باب المحل من الخارج، نحيف آخر يقترب مني يسترق النظر ويتأمل كتابي، كاد يحنى رأسه لولا أن رفعت رأسي مستفزاً، استغرب كيف أكتب من اليمين لليسار، وبحروف غيرلا تينيه، شعر رأسه أكثر حمرة من شفاه رفيقته، شقراء ترص كيانها به، تميل رأسها على كتفه، تطوق وسطه بذراعها وتجذبه مالك وما يدور

في كل العالم، أنا العالم فهيا نجد لنا مكاناً نكمل حلمنا فيه يسيران ببطء وبملوكية، كأنه يدفع بها أو هي التي تسنده أو تدفعه، ضحكتها تعلو في مرح وفي استمتاع حين لف يده حول مؤخرتها، طرق براحة يده هناك، متعة وتحبب لهنّ، تراث أصيل هناك، اهتاجت فالتصقت به أكثر، وأنا ألملم بقية أوراقي ومسوداتي، ثدياها يندفعان في عناد وهو يعصر كفيه، لا أنكر أنني شهدت جنداري يموت لحظتها، أرصد الفضاء المناسب للتحليق، أنشغل بمساعدة النادل في ترتيب أطباق الطعام أمامي، ازدهرت الشجرة اليانعة في الركن القريب مني، حرة وفضاؤها شاسع، نكهة الطعام أمامي شهية جداً، آكل في عماء وغباء، كدت أشرق أثناء ابتلاع اللقمة الأولى، عيناي شاركتا أعين الكثيرين حيث انغرست في سرتها التي برزت للخارج أكثر.

نورث كارولاينا ، مايو ١٩٩٧

جارتنا وحارتنا
JARITNA AND HARITNA

جارتي"أم راجي" خمسينية طويلة القوام، قوية البنيان، سليطة اللسان، ترتدي ملابس نظيفة دائماً ومرتبة، تبدلها مرتين يومياً، وما أكثر ما تملك من ثياب ليست رخيصة، عدا عن كثرة مشترياتها الشهرية من الملابس لها ولابنتيها، خلافاتها مع زوجها الثالث ثم موته زادتها جرأة في الكلام والملام والخصام، يصعب عليك فهم شخصيتها من لقائك الأول معها ولو طال، تجعلك تحب عشرتها وتتمنى وهي رائقة صداقتها ، ثم بها صفات أخرى تجعل منها شراً لا بد منه.

أما أنا فأم لأربعة أطفال، وعمري جاوز الخامسة والثلاثين، مبتلى بالتصاقي بها، كصديقة أو خالة أو جارة، أحترمها كثيراً بسبب فارق السن الكبير بيننا، إذا طبختُ أرسلتُ لها منه، وإن طبختْ أم راجي أرسلتْ لي صحناً، كنت أحتفل بما ترسله لي وأفضله على طبيخي في منزلي، وخاصة إن كانت الملوخية أو البامية، أحب طريقتها في طبخهما، أتغدى من الصحن الذي ترسله لي، وأحاول أن أتعشى منه، تاركاً ما طبخت لأسرتي، أملاً في أن لا يشاركونني الطبق الوافد من أم راجي، وللأسف لم يكن أسلوبي ذاك ناجحاً دائماً، يترك الأطفال ما طبخت لهم، ولسوء حظي فالأطفال يحبون مشاركتي في أي طعام أمد يدي عليه.

أزداد تعلقاً بها وتقارباً يوماً بعد يوم، وتستطيع أن تقول عاماً بعد عام، لإحساسي بحاجتي لخبرتها في الحياة، الجارات وأنا نحتاجها كل يوم لتعلم المزيد عن الرجال عموما والأزواج، حاول أكثر من رجل التواصل معها ليكون زوجها الرابع، لكن هذا الأمر لم يتم، لأسباب لا مجال لذكرها هنا. تهاتفت قبل أيام مع جارة أخرى والتقينا عند أم راجي، تغلق أم راجي النافذة الشرقية بعد دخولنا لهبوب ريح تحمل روائح كريهة، تنبعث من حرق فضلات مدينة عمان أو الزرقاء، مع أن الموقع على بعد لا يقل عن عشرين كيلومتراً، نقفل أنوفنا متأففات متضايقات، قالت الجارة السمراء الثرثارة، أين المفر؟ لو كان أزواجنا أغنياء لانتقلنا للسكن في مناطق عمان الغربية؟ وهرج أم راجي ومداعباتها تتواصل، وبرغم أنّ جارتنا أضحت أرملة بعد مجاورتها لنا، ظلت على خلاف مع زوجها الثالث ومنازعات حتى تكالبت عليه الأمراض، ثم طلب من أولاده الكثر من زوجتين قبلها، السماح له أن يموت في المستشفى.

تكبرني جارتي أم راجي بعشرين عاماً على الأقل، أتحملها أنا وزميلاتي الجارات الأخريات، حتى لو تجرَأت بالسباب واللعن على أيّ واحدة منا، زوجي صار ينبهني حتى ويحذرني من عواقب هذا التعلق المتنامي بها، والحق يقال أنني لست المرأة الوحيدة في الإدمان على علاقتي بها، فمنزلها ملتقى لستٍ من الجارات أو أربع في معظم الأوقات، كريمة في تقديم القهوة والشاي، تحب جلوسنا عندها الساعات الطوال، ولولا كثرة لسع البعوض وأزيزه وملام الأزواج، لتمنت كل واحدة منا قضاء الليل عندها والنهار، أم راجي لا تتضايق من وجودنا الجميع

عندها مهما كلفها ذلك، تشكو الفقر وضآلة الدخل الذي يأتيها مما ترك زوجها بتنظيم قانوني، إلا أن معظمنا يحسدها على كثرة ملابسها وغلائها، وعلى كثرة الأطعمة التي تتوافر في منزلها، وتنوّع ما تقدمه لنا، يذمها زوجي، ولا يتوقف عن لومي كل يوم، لا أبوح لها عن ذلك حتى لا تعرف ضيقه منها، ينتقد لكنه لا يعنف ولا يلحّ، غير خشن مع النساء، بل إن لطفه وأسلوب حديثه معهن يوقظ الغيرة في نفسي أحياناً، يقول زوجي عن جارتي أم راجي إنها سوسة الحارة، لكنه لم يصدف أن جهر بأسباب كرهه لها، ولا أعلن عن ذلك لأي شخص سواي، حتى لو صدف وحضر حين تكون في زيارة لي بمنزلي مع اثنتين أو ثلاث من الجارات، يبشّ لها ولغيرها من الحاضرات، بل و يمازحها أحياناً وذلك سرَ لم أدرك كنهه، تلاحقنا الرائحة الكريهة من مصادرأخرى، وقرب حينا جنوب عمان توجد مؤسسة كبرى، تخرج منها مياه عادمة كريهة الرائحة كأنها سيل نبع فوّار في ربيع بعد شتاء ماطر طويل، ثم تقضّ مضاجعنا القوارص ونعاني الكثير من آلام لسعاتها، لكن مجاورتنا لتلك المؤسسة المشهورة نعمة لنا أحياناً، إذ يسهّل على معارفنا القلة والأقارب الأبعدون سرعة الوصول لمنزلنا، لو فكر أحد منهم بزيارتنا، وحتى السبّاك والكهربائي والحداد والنجار وصاحب صهريج نضح الحفرة الامتصاصية ورجال المخالفات، لا يلاقي أي منهم صعوبة في الاستدلال علينا لمجاورة منزلنا للمؤسسة العظيمة.

برغم أن سنها جاوزت الخامسة والخمسين عاماً، إلا أن أم راجي ما زالت تتمتع بأنوثة وجاذبية، ونحسدها على تناسق جسمها الذي يكمله طولها الزائد، أسلوب بسمتها أو ضحكاتها تجذبنا نحن جاراتها،

فهل لها ذلك الأثر على الرجال أيضا؟ وأناقة ملابسها لا تقارن بملابس أي امرأة في حارتنا، أتمنى أن لا أصنف أشكال جاراتي الأخريات ولا أجسامهن، فواحدة قصيرة ممتلئة تدّعي الجمال لأنها شديدة البياض، وأخرى متوسطة الطول وتعمل مدرّسة، كثيرة التعليق والتنكيت، ثقيلة الوزن وتعاني من أمراض عدة، وثالثة مشوهة الوجه بشكل منفر تحاول تقليد أم راجي بارتداء الملابس الثمينة لكنها ثقيلة السمع، ورابعة سمراء ثرثارة لها مؤخرة عريضة تتفنن في أساليب الغيبة والنميمة، وخامسة حسودة حقودة لكن شعرها غزير جميل منساب وتحسن تصفيفه، وسادسة شقراء شمطاء ساذجة، تفرح حين نمدحها فتقوم بغسل الصحون وتنظيف فضلات الطعام، قد لا أكون مبالغاً إن قلت أنها لا تكسف أي جار أو عابر لو حادثها، أرجو أن يسامحني ربي، عاهدت نفسي أن لا أطري الغائبات، ولست مضطرة لوصف نفسي، فربما تظهر لكم شخصيتي من كلماتي، أما الجار الأمريكاني فهو جاهل عاش طويلاً في أمريكا وحصل على جنسيتها، شبه إنسان لا تدري كيف تصفه، جريء أو هو أبله لا يطيب له إلا الجلوس مع النساء، حتى أن حديثه يكاد يكون أنثوياً، حافظاً كل تعابير النساء ولهجاتهن، وأمريكا زادته جرأة، ولا يرى عيباً في أي شيء، نسيت أن أقول أن الشقراء الطويلة الشمطاء كثيرة التدخين لا تفرّق بين سيجارة وطنية وبين سيجارة أمريكية، كله عندها دخان، ودائماً تقول عنه "يتلف الرئتين فقط"، تحمل معها أكثر من علبة سجاير، كريمة في تقديم سجائرها لأي منا، بل تبتهج كثيراً ممن تقبل مشاركتها التدخين، حاولت أن تسمح لها أم راجي بإحضار الشيشة (الأرجيلة) لجمعاتنا، لكنها ووجهت بمعارضة أغلبيتنا، مع أن

صاحبة المؤخرة العريضة السمراء تقف عادة إلى جانبها، لكن الواضح أن الطويلة الشقراء نجحت في التأثير على معظمنا برغم استغلالنا لبساطتها في كل مرة، فصرنا نشارك في التدخين، وأصبحت الحقودة الحسودة صاحبة الشعر الجميل الطويل المنساب مدخنة مدمنة، وحين استغربنا منها ذلك قالت

- فقر وفراغ وقلة كيف؟

جارتي أم راجي تكثر من أكل الخضراوات والفواكه، تقول أن الطبيب نصحها بذلك لتحافظ على نضارة وجهها وصحته، دار همس أكثر من مرة بيننا حول جذبها انتباه رجال الحارة، ونحن النساء لنا قدرة عجيبة على التقاط الدلالات، حتى لو كتمنا ذلك أو اصطنعناه، ولأنّ جارتي أم راجي ترملت منذ عشر سنوات، فاهتمام رجال حارتنا بها خليط من عطف وإعجاب.

طبول مارشات عسكرية تملأ الأجواء خارج المكان، نمكث بمنزل أم راجي ساعة أو ساعتين وقد تصل إلى ثلاث أحياناً، بالرغم من شكواها من قلة دخلها الشهري، تطلّ القصيرة البيضاء الممتلئة من النافذة، فتطير حمامة برية، تجفل راجعة تولول مستغربة، وتزداد قوة الطبول العسكرية، وصيحات الشباب المدوية، حين تركت النافذة مفتوحة، ثم تخاطب أم راجي في لهفة

-أم راجي، أم راجي! هل تعلمين عن جارتك الحمامة؟

- فقست بيضتان قبل أسبوع. تجيبها أم راجي ببرود، فتعلق البدينة.

– حتى الحمام يحب جيرة أم راجي، لا بد أنه دور الذكر في الرقاد على الفراخ هذا اليوم. رفعت أم راجي المكنسة تهدد بضربها، فصدمت العصا صورة معلقة على الجدار.

– صورة المرحوم يا أم راجي! أغضبت المرحوم يا «ولية»

لم تسرع أم راجي برفع الصورة المحطمة والإطار المتكسر، تجمدت لثوان دون أن يبدو انزعاج على وجهها، ثم ابتسمت وهي تقول

– راح المرحوم وراحت أيامه.

حين تكون جارتنا أم راجي غائبة، اعتدنا أنا وجاراتي التحدث أو التهامس عن مواضيع حساسة، وفي الأمس تساءلنا كيف أن أم راجي في بحبوحة من عيش؟ ونحن وأغلب الناس في ضيق مادي، وأكثر ما كان يغيظ زوجي أسلوب تربيتها لأطفالها، أصبح عمر الصغير اثنتا عشر عاماً ، وما زال يجلس في حضنها، ثم إن زوجي مقهور على قانون الإيجار وناقم على المشرّعين، ودائماً يقول

– قانون جامد لا يسمح بزيادة الإيجار كل عامين، أو حتى لو كل خمسة أعوام.

يتمنى لو يجد حيلة أو وسيلة حتى يجبر أم راجي على الرحيل من حارتنا، تستمتع بإيجار ثابت ورخيص جدا مقارناً مع إيجارات المثل في سنواتنا الأخيرة، أشارك زوجي همومه حول هذه النقطة، إذ لو أجرنا الشقة التي تسكنها أم راجي حسب الأسعار الدارجة، لقبضنا ثلاثة أضعاف ما تدفعه لنا شهرياً، أهدئه بل أعمل جاهدةً كي يوقف تفكيره عن هذا الموضوع، حتى لا يزداد شقاؤه عبثاً، ولأعوام عدة وأنا أثنيه عن توكيل محام ما للعمل على إخراجها، اعتدنا أنا والجارات على أحاديثها

وتأنيبها ومزاحها أثناء قهوتها وطعامها، كثيراً ما كنا نتحرش بها، أو نتعمد اثارتها حتى تفعل ذلك، وقد تهمل واحدة منا أو أكثر أعمال بيتها حتى لا تفوتها نعمة التجمّع، لا تملَّ أم راجي من أحاديثنا ولا من شرب القهوة أو الشاي سوياً عندها، أتمنى أن تبقى مواضيع أحاديثنا سراً كما تعاهدنا مراراً على ذلك، وموجز ما نتحدث عنه في كل لقاء هو الرجال والشهوة والجنس والغيبة ونكهة الطبخ وبياض الغسيل والنظافة والذهب والموديلات الجديدة من الملابس، مواضيع لا تضرّ فرداً معيناً، ولا ضد إنسان خاص، وحين يشتد الحر داخل البيت تقوم إحدانا بزيادة سرعة دوران المروحة صيفاً، واقترحت مشوهة الوجه مرة أن تجهز أم راجي مروحة لكل واحدة منا، وأحياناً نشاهد أخبار التلفزيون ولا يلفت انتباهنا إلا موت أحد الأطفال ، أو أحد الرؤساء ، بكينا مرة لموت طفل ظلماً، لحظتها لطمت الطويلة ذات العظام الناتئة على وجهها وصارت تردد نصوص نواح حفظتها عن جدتها أو والدتها، من مثل (حمرا يا لهيبة وين رحتِ فيه ، ضيّعتِ المحبوب قومي ابكي عليه) فيبدو الهم على وجوهنا والغمّ، حتى لو كنا نضحك قبلها بثوان، ودموع غزيرة تنسكب من أعين معظمنا، مع أن آثار البسمة ما تزال على وجوهنا، وفجأة نعود بعدها إلى التباهي بما اشترت كل واحدة من الذهب أو اقتنت، وغيوم الدخان تتصاعد من أفواههن وأنوفهن، تملأ المكان فتمتلئ صدور غير المدخنات منا، وتعود النكات تتبعها الضحكات تتطاير مع غيوم الدخان، تقف الشقراء الساذجة أمام المرآة تتلمس شعرها، وترفع القصيرة البيضاء طرف فستانها حتى تبرز ركبتاها، متذرعة بشدة الحر، حتى لو كانت الثلوج تملأ الساحات حول البيت، ثم تلفّ ساقاً على ساق، كبر

أطفال جارتنا الأرملة الثلاثة، رافضة الزواج من أي رجل كما تقول، وكلنا نعرف أن كلامها ادعاء وغير صحيح، ولو أتاها رجل غني لباعتنا وباعت كل حارتنا، تخطت ابنتاها سن المراهقة، تحرصان كوالدتهما على ارتداء أحدث الملابس وأثمنها وبألوان وموديلات جذابة، وهذا أشد ما كان يحرجني أمام زوجي، ثم يوغر صدور الكثيرات من فريقنا حسداً، فنجد أنفسنا في دوامة من إحباط وحيرة، عاجزات عن تفسير أسرار حياة جارتي أم راجي وتصرفاتها، والأكثر حيرة لي ولزوجي إنها الوحيدة التي تدفع إيجار الشقة الرخيص أول كل شهر، مقارنة بغيرها من المستأجرين الذين لا يدفعون الأجرة إلا بطلبات متكررة وإلحاح، وحين تخرج جارتنا أم راجي للسوق أو للزيارات خارج الحارة كل يوم أو يومين، تعود في سيارة تاكسي محملة بأصناف الطعام واللباس والحلوى والخضار والفواكه، وأول شيء تفعله بعد عودتها من السوق تقوم بالاتصال هاتفيا لتجميعنا عندها، ولتطعمنا من كل ما حملت من أنواع الفواكه، أو مما صنعت من أصناف الطعام اللذيذ الذي تتفنن فيه، وإذا صدف وعارض زوجي ذهابي لحضور التجمع لوجبة لذيذة عندها، فستصلني حصتي من أي لونٍ طَعِمَ الباقون منه.

اتفقنا بالأمس على مغادرة الجلسة إذا حضر الجار المتأمرك، وعادة ما يسأل أول وصوله بصوت أنثوي، «ماالذي جرى يا خالاتي حتى خيم الصمت عليكن؟ « فتجيبه الحسودة ذات الشعر الطويل قائلة له

- نكدت علينا الجلسة، ولماذا لا تحضر زوجتك معك؟ يكشف طاقيته الأمريكية القذرة، فتظهر صلعته، يحني رأسه للأسفل كثيراً قائلاً

- هيّا عاقبي هذه الرأس. نسخر معظمنا من قوله وشكله، يحب لعب ورق الشدة مع أم راجي أو مع واحدة من ابنتيها، إحداهما بكر والثانية مطلقة، مع أن عمر المطلقة لم يتجاوز الخامسة والعشرين، ولا ينسى زوجي كل يوم أن ينهاني عن حضور تلك التجمعات، نتناقش عادة حول هذا الأمر، لكنه لا يصل حد الخصام الحقيقي، يصدف أن يختلق مشكلة أو يثير جدلا كي لا أذهب لها.

صباح هذا اليوم البارد حصل ما لم يكن متوقعاً، ريح زمهرير تضرب الأبواب والنوافذ في الخارج، فطلبت من ابنتي الكبرى أن تشعل مدفأة البترول قبل نهوضي من السرير، وأحس ببرد يلسع في كل مكان، تقرع جارتي أم راجي الباب بعنف، يفتح أحد أطفالنا الباب ليستطلع من الطارق، تندفع أم راجي داخل بيتنا دون استئذان، معاتبة في صوت مجلجل، مؤنبة ولائمة في تبجح، تسب البيوت وتلعن الإيجارات، كنت ملتصقة بصدر زوجي لحظتها، قفزنا باضطراب وارتباك كل من جهة من طرفي السرير، لارتداء ملابس الخروج، توجساً لأمر جلل أو مصيبة حلّت بجارتنا أم راجي الطويلة، ومن خلال كلامها الغاضب فهمنا أن مصرف ماء المطر فوق شقتها كان مقفلاً بأوساخ وحشائش، اضطرت أن تنظفه حتى لا تمتد الماء على سطح العمارة وترطب جدران الشقة التي تقيم بها، أوقفني زوجي عن الكلام، ولم يتحدث معها بكلمة واحدة، لكنني سمعته يتمتم، يلعن بصوت لا تسمعه، ظهر على وجهها التعجب من جمودي وصمتي المحايدين، وبعد أن أفرغت كل ما في جعبتها من كلام وملام، قال لها زوجي بحزم وفي أناة

- إما أن تتركي الشقة أو تصلحي ما يزعجك!

سكتت عن الكلام، وقفت قليلا ثم غادرت منزلنا وهي تسب نفسها وأهلها (وتذم) زوجها الأخير الميت، غادر زوجي البيت هو الآخر ملغياً خروجنا برفقته لزيارة والدتي وأهلي في ذلك اليوم.

عمان ٢٠٠١/٢/٢٠

فلات تاير في أمريكا
Flat Tyre

الساعة السابعة مساء، نقف على جانب الطريق بسيارتنا، أعني سيارة ابنتي وزوجها، واليو م مساء يوم جمعة، ليلة السبت، حمى ليلة السبت، حيث يشرب أغلب الناس الكحول أو يكثرون منها، أجلس على قضبان حاجز الطريق العريضة، كان موقع توقفنا خطر جداً، إذ أننا على مفترق طريق سير سريع تنقسم إلى طريقين سريعين، تسير السيارات عليها بسرعة لا تقل عن تسعين كليومترا في الساعة حسب قانون ولاية نورث كارولاينا، نسيت هاتفي النقال في المنزل، تعاتبني ابنتي كيف تنسى هاتفك، سبحان الله تذكرت أنني سأسمع عتاباً كهذا بعد ابتعادنا عن المنزل بأميال قليلة، من مكان وقوفي واستنادي إلى قضبان الحاجز، أرى سيارة تشير بأضوائها الرباعية التي تنبئ بالخطر تتوقف عن سيرها السريع، وتلاصق خط الرصيف وتبدأ بالتحرك للخلف، آلاف من السيارات مرت خلال نصف الساعة التي ننتظر فيها على جانب الطريق، أتأمل غروب الشمس أو شمس الغروب، هواء عليل يداعب شعر رأسي الخفيف الأشيب، يشعرني بانتعاش غريب برغم الضيق الذي نحن فيه، خرجنا من دار السينما بعد أن حضرنا فيلم ال (هولك) الذي أخرج حديثاً هذا العام، فيلم عجيب وتقنياته متقدمة لم يسبق أن شاهدت مثله، والمعدات واللوازم والأجهزة والأفراد الذين وراء الكاميرا ووراء الفنون كلها حسبما ورد في مقدمته بلغوا أربعمائة

وخمسين فرداً، تلك الشرحات الطويلة من الغيوم الداكنة متباعدة عن بعضها، بمسافات تقدر بقامة رجل أو اثنين بين كل شرحة غيم وأخرى، حاولت عدم الاهتمام بالسيارة التي تحاول الرجوع للوراء، وعلى بعد أكثر من نصف كيلومتر عن مكان وقوفنا، لأمعن النظر في السماء غرباً، نعم إنها بدأت بالرجوع ، السيارات تزمجر وتئز وتتسابق، وكسف الغيوم لم تكن أطرافها متساوية كشرحات البطيخ، منظر ساحر محيّر، والشمس تزيد من روعة منظر تلك الغيوم المشرحة، محظوظون أننا نملك أعيناً لنرى تلك الإبداعات العفوية وللاستمتاع بها، أشعة كانت حبيسة بدأت تمتد في أجواء السماء السفلية بعد أن تزحزحت الغيمة قليلاً عن قرص الشمس، والسيارات تهدر وتدوس الأرض والطريق بلا رحمة وبجرأة عجيبة، أشعة الشمس رقيقة لا تشعرك بالحرا رة، تحس أنك بحاجة لها، خاصة وأن الجو بدأ يبرد بعد عصر ذلك اليوم من أواخر شهر سبتمبر، لا يقلقك هبوب النسيم البارد على شعرك، السيارة التي تعود تسير ببطء وبحذر شديد، تتخذ نفس المسرب الذي نقف فيه، لكنها ما زالت بعيدة، لم يعنني أمرها كثيراً، طالت مدة عرض الفيلم، فاضطررت للخروج مرتين لاستعمال المرافق الصحية، شربنا سوائل كثيرة بعد تناولنا البيتزا لطعام الغداء ذلك اليوم وقبل ذهابنا لحضور الفيلم، ثم أحضر صهري مشروبات غازية والكثير من البوشار حين دخلنا قاعة عرض الفيلم، كنت كلما خرجت من صالة العرض المعتمة أمد يدي إلى جيبي أتأكد من وجود تذكرة دخول الفيلم، لأن هناك عشر صالات في نفس المبنى تعرض أفلاماً مختلفة، ويستطيع أي مراقب أن يوقفك، ويسألك عن تذكرتك وأي فيلم دخلت، كان اسم الفيلم

مطبوعاً على البطاقة، صهري منشغل بالاتصال من هاتفه الخلوي، الأرض خلفي ملعب كرة قدم، يغطيها عشب يانع كأنه سجادة ذات ألياف عالية خرجت لتوها من مصنعها، ما أكثر السيارات والدراجات على ذاك الطريق هذا اليوم، وخاصة قرب غروب الشمس ومساء أول ساعات عطلة نهاية الأسبوع، الكل مسرع إلى موعده أو لمنزله أو ليشبع جوعه، أو للوصول لحاجته، تزداد السيارات هياجاً وجنوناَ وضجيجاً مع مرور الوقت، والشمس تنحدر قليلاً قليلا ، والسيارة الأخرى ما زالت تواصل الرجوع للوراء ببطء وبحذر شديدين، تقترب من مكان توقفنا وصرت أراها بشكل أوضح.

حين خرجنا من صالة عرض الفيلم، كنت أحس بحاجة لشرب كأس من قهوة أنعش بها عقلي وجسمي بعد انحباس طويل، وتوتر أعصاب أثناء عرض الفيلم لأكثر من ساعتين، لكنني اضطررت أن أركب السيارة مع الأسرة، وصرنا كغيرنا مجبرين على السرعة حسب نظام السير على الطريق السريع، لاحظت أن كثيرين يجتازون سيارتنا، لكن قائد سيارتنا صهري حذر دائماً وقلق، وأخفي عنه أنني أتهمه بالجبن في قيادة السيارات برغم مرور ثلاثين عاما على الأقل وهو يمتلك سيارة، يعلم جيداً عن تكاليف الأضرار بعد الحوادث، وعن مضايقات شركات التأمين، نتيجة حوادث السيارات، لكن حادث السيارة في أمريكا مصيدة لشركات التأمين أولاً ولرجال المرور ثانياً، ما زالت السيارة التي تعلقت بها عيناي دون باقي أعضاء الأسرة تتقهقر للوراء ببطء، وفضولي يزداد عن سبب تراجعها، خطر محقق وممنوع قانونياً، ولو شاهده شرطي مرور فسيتحمل مخالفة كبرى وغرامة، عدا عن رفع

قسط التأمين على سيارته. ما زالت ابنتي تتصارع مع زوجها

- يا سيدي اسمح لي أن أركب العجلة الإضافية بدل العجلة المعطوبة؟ فيجيبها

- كلا سأتصل بالشركة المعنية، وهذا واجبهم، فنحن ندفع لهم أقساطاً شهرية لينجدونا حين نحتاجهم . وأؤيد ابنتي قائلاً

- لكن الأمر بسيط، وما أكثر ما استبدلنا المعطوب بالدولاب الاحتياط

- عمي أرجوك أن لا تلمس شيئاً.

أتجمد لحظتها، لم تطعه ابنتي، بل سبق وأنزلت الدولاب الاحتياطي من السيارة، وبدأت بفك البراغي عن العجلة المعطوبة، منع صهري أطفاله من النزول من السيارة، ومنعهم حتى من فك الأحزمة عن أجسادهم لسببين : يخشى أن تصدمهم سيارة من الخلف، في هذا السباق المجنون والسيارات بالآلاف في كل ساعة على طريق سريع وحيوي، وحتى لو صدمت سيارة عابرة سيارتنا فسيكون الأطفال مربوطين في الأحزمة فلا يتناثرون أو يتحطمون، تكاثرت طيور كاسرة وغرابيب سود مع غروب شمس ذلك اليوم، تحوم فوق الأشجار المتطرفة من الغابة، حاول فرض رأيه عليها، لكنها ظلت تعمل على تغيير الإطار المعطوب بهدوء واتزان، غير عابئة بما يتكلم، تقترب الطيور من موقعنا، خشيت أن يتجرأ إحداها على نقر رأسي، وأنا مطرق أفكر أيهما سيحصل أولاً، نجاح ابنتي في تبديل العجلة المعطوبة، أم حضور شركة خدمات الأعطاب في الطرق السريعة؟ دفعنا العجلة الاحتياط لتركيبها مكان المعطوبة، فماذا اكتشفنا؟ أنها هي الأخرى تكاد تخلو من الهواء، أنظر

للشمس الغاربة في شبه غباء تارة، وللعشب الأخضر خلفي وأمامي، هل سيحل الظلام علينا ونحن هاهنا قاعدون؟ وهناك سبب إضافي آخر للقلق، وربما كان هو الأهم عند صهري أن هناك بعوض وحشرات تملأ الأرض والسماء، وتبحث دائما عن إنسان أو حيوان تلسعه، يموت زوج ابنتي خوفاً من قرصة بعوضة أو وصول أي حشرة لجلده، وهو اليوم يلبس بنطالا قصيراً، تلك الطيور التي تحوم حولنا تأكل أي شيء ميت أو من مخلفات الإنسان والحيوان، وجه ابنتي يضمر وينكمش، يصفرّ ويميل للزرقة، هرب الدم منه، بل هرب من كل ملامحها وجلدها، يزداد قلقها بعد اكتشاف عطب العجلة الاحتياط، عقلها يفكر بما يجب أن تفعله ريثما تحضر شركة خدمة التعطيلات، راهنت على أننا لن نغادر المكان قبل مضي ساعتين، وسيكون الوقت ظلاماً، سبق لها وخططت وثبتت موعد زيارتنا لشقيقتها وزوجها ووالدته هذا المساء، والوعد عندها مقدس حتى لو أصابها الأذى، وأنهك جسدها وفكرها، هي الآن في حال مضطربة، وأطفالها مقيدون داخل السيارة، غير مسموح لهم بالتحرر حسب تعليمات والدهم، تمنيت أن لو كان معي كتاب أتسلى بقراءته ما دام لدينا وقت طويل، تذكرت أنني ارتبطت بتلك الأسرة صيف ذلك العام لتدريسهم اللغة العربية، ما زالت الشمس تتسل ببطء يخيفني بل يعبث بأعصابي، تظهر تارة وتختفي تارة أخرى وراء كسف الغيوم، التزمت ابنتي برأيي في الهدوء والصبر، كتمت غيظها، لكنها تريد أن تتم الزيارة في تلك الليلة مهما كلفها ذلك، اتفقت هي وشقيقتها الثانية المتزوجة أن تزورا الضيفة القادمة من وراء البحار في ذلك اليوم، وابنتي تصرّ عادة ان تدرب أبناءها وبناتها على الحفاظ

على العلاقات الأسرية، تسألني ابنتي: أين هاتفك يا والدي

- قلت لك أنني نسيته في المنزل

- وكيف تنسى هاتفك النقال؟

- هذا ما حدث.

اختفت الشمس خلف الأفق، ولم يحضر أحد لنجدتنا مع ان الموظف الذي أجاب على اتصال صهري، وعد أن يكون ذلك في ظرف نصف ساعة، وجهت كلامي لابنتي

لماذا لم تحضروا كرة القدم معكم؟

اعترض صهري قائلاً: لن أسمح لأطفالي بمغادرة السيارة.

- هل تحملون كرة قدم معكم ؟ وما رأيكم في هذه الساحة الفسيحة المريحة ؟ اعترض صهري على اقتراحي قائلاً : لن أسمح لأي من أولادي بمغادرة السيارة.

بدأ الهواء يبرد بعد غروب الشمس، تقترب السيارة التي تتراجع ببطء للوراء، قدرت أنها تقترب منا، طلبت من ابنتي أن تتقدم صوبه، سألها قائد السيارة إن كنا بحاجة لمساعدة، وحين عادت ابنتي قلت لها معنا عجلتان فلا يستطيع شخص عادي أن يساعدنا، كان رجلاً عجوزاً شهما ومعه امرأة عجوز زوجته أو صديقته، زوج ابنتي يقف بعيداً يداعب ابنه الصغير، ويحاصره في حركاته وسكناته، والطفل يلهو ويحاول أن يمتطي الحاجز المعدني، فيخيفه أبوه ويمنعه، يحضر الفني مندوب شركة المساعدة، يحمل جهاز نفخ كهربائي، ينفخ الدولاب الاحتياط، ويركبه خلال دقائق خمسة أو ستة، ونصحنا بالذهاب لأقرب محطة لإصلاح العجلات لإكمال الباقي، وأنا أجلس على طرف الحاجز

المعدني، وجزء من عجيزتي تستند متألمة على أعلى العمود الخشبي، نسيت أننا كنا في محنة، وحين نادتني ابنتي كنت منشغلاً بمراقبة كل شيء، السيارات المسرعة والدراجات والأنوار القريبة والبعيدة والأشجار التي ازدادت حركة رؤوسها بعد الغروب، كنت أريد أن أشكو الإحساس بشيء من البرد، نادتني ابنتي للمرة الثالثة ربما، وآلاف السيارات تنهب الأرض كأنما هي في سباق مع الزمن.

أمريكا - رالي

في ٢٠٠٣/٠٦/٢١

كاهن أصغر[٢]
SMALLER WISE PREACHER

كاهننا اسمه أبو عفاف، لم يعد يزورنا كثيرا كما كانت عادته، لكنه إذا زار أطال، يتدخل في كل أمر من أمور حياتنا، حتى أنه يضحك أويشاركنا فرحنا بتحفظ أحياناً، وربما يحزن أو يغضب لما ينغص عيشنا، يطيل الجدل حول أي موضوع يهمنا، وفي نظره لا يوجد موضوع لا يعرفه، مرجعاً ذلك لكثرة ما مرّ به، يفتخر بأنه اكتسب خبرات واسعة، تؤهله للتحدث حول أي موضوع طارئ، لا يتوقف عن شروحاته حتى نظهر مللنا من تشعب الجدال، وقد تنشب خلافات تنتهي بصمت ونفور، لا تدري القاهر من المقهور، وإذا حلّ موعد الطعام، أكثر الأكل معنا متحسساً بطنه مادحاً فضل الصيام، يعود بعدها للمداخلات والتدخلات ثانية، نضطر للصمت حتى يبدو عليه الارتياح، يبدأ بعدها بالضحك والمزاح ، تلك كانت طريقته وعلينا تقبلها، وأقول (كانت) لأننا لا نعرف أين وكيف ومتى اختفى، غاب منذ زمن طويل، فكيف حضر في زيارة لمنزلنا ليلة الأمس؟ وبصراحة لم ندر وقتها هل نحن في حلم أم في علم، لأن المدة التي افتقدناه فيها طالت حتى نسيناه، ونسينا أسلوبه الذي عهدناه، والغريب في الأمر أننا لا نستطيع أن نعاديه، ولا أن نحجم عن حسن استقباله، فعلاقاتنا به طويلة معقدة، وتستطيع أن تقول عنها أنها شبه مفروضة، قربى ومصاهرة وصداقة وضرورة

٢. نشرت في الصفحات الثقافية لجريدة (طريق الشعب) العراقية البغدادية بتاريخ ٢٢ كانون الأول عام ٢٠٠٥

و. . . (خاوة) إلى آخره من معجم السنوات الأخيرة، هذا عدا عن جولاته وصولاته في مباريات دورية ضرورية في لعب طاولة الزهرأو الشطرنج، بالاختصار يصعب تعداد كل الأسباب التي توجب علينا الترحيب به، حتى ولو ظاهراً، وكما قلت سابقا إذا زار أطال المكث، أكلاً وجدلاً وشرباً ولعباً . ينزع ملابسه ويطلب غيرها أكثر راحة له طبعاً، أو يحمل معه ملابس فضفاضة، فنحن أسرة من قوم لهم فلسفة عجيبة خاصة، نسبت أن أقول أن أبا عفاف كان واحداً من أهمّ كهنتنا الكثر، ثانية أقول (كان)، لأنني لم أكن أتوقع أنه سيعود.. أو هل سنراه بعد غيابه الطويل، فظروفه اختلفت كثيراً عن ظروفنا، ولذلك قصة يطول شرحها لو تعرضنا لها.

أحياناً لا يعارض ولا يقترح جديدا، صامت صابر أو متصبر، تظنّ أنه لن يتدخل في أي موضوع، كفاقد الوعي أو مقفل الأذنين، حاضر منشغل أوغائب عن المحسوس، وحين يطلب منه الرأي، (فكما يقول المثل يسكت شهراً وينطق دهراً) يبدو للحاضر أنه يقبل أي خطوة تقوم بها أسرتنا، لا يغضب من معارضي التراث ولا يؤيدهم، لكنه تمنى التحكم بنا في أكثر من مناسبة، لا تسمعه يهدد بل يحقد ويبرر ما يفعله، وحين زارنا في المرة الأخيرة كان جميع الكهنة وعلية القوم مشغولين بتعيين كاهن جديد، حتى قبل اختفاء كاهننا المتحكم الحالي، والذي لا يراه أحد، غاب عن بالي أن أقول أننا قوم نؤمن في اللامرئي، فلسفة توارثناها جيلا بعد جيل، عرضنا أمرتزويج ابنتنا لرجل ثريّ يتاجر في الملح على أبي عفاف حين كان في زيارتنا ليلة الأمس، لأنه كاهن عارف عرّاف يأخذ الناس رأيه في أمور مهمة، هز رأسه فطارت ذبابة

كانت باب أنفه حين ابتسم، قلنا له : نخشى أن تتغير حالنا بسرعة، أو قد تسير أمور حياتنا إلى الضياع، وهو يعلم أن حياتنا تعتمد على تراث غير مكتوب ولامرئي، لذا ترى هياكلنا وأماكن اجتماعنا مربعة تخلو من الزخرفة، ومع هذا فهي تنم عن أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا، أتثاءب وأمد يدي كي أشرب فلا أرى حولي إلا ضوءاً خافتاً يرف من بعيد، مطمئناً أن أفكارنا وأفعالنا لا نراها ولا يراها أحد غيرنا، مالهذه الكهرباء؟ أظنها مقطوعة هذه الليلة، كأنها شمعة بعيدة ضعيفة، ومع هذا يعبث أطفالنا أمام عينيه بطرق مختلفة تماما، وبأسلوب بعيد جداً عن أطفال الدنيا التي نعرف أو نسمع.

كاهننا ومدبّر أمورنا وأحيانا سوسة عقولنا يحزنه أمر واحد ينخر حياته، يتمنى أن يكون لدى ابنه بعض ما لديه من قدرات أو مؤهلات، يصرّ على تعليمه على التعامل مع الطالب والمطلوب، أو هل درّبه كي يكون دليلا، حتى نعتاد أن يكون له بديلاً، لاحظنا تغيراً كبيراً عليه في زيارته الأخيرة، أفاض علينا من بركاته سماحة مبطنة بتهديد، ومن يعلم فعودة أبي عفاف في الليلة الأخيرة التي زارنا بها بعد طول غياب، تجعلنا نشك أن هناك بلبلة كامنة تقض مضجعه، ربما حاول بكل إمكاناته إيجاد كاهن يتفق معه في أسلوبه، أو هل أراد منا أن نتعامل معه بطريقة تختلف عما اعتدنا عليه، لكن اللامرئي في دنيانا لا يتيح لنا أن نعرف أسباب همومه، على كل حال ألمح لنا أنه يتردد كثيراً في تعيين كاهن جديد، لم يطلب من مجمع الكهنة ولا من وجهاء أهلنا الاستماع لوجهة نظره حسب علمنا، لم يكن ذلك غريباً علينا لأن اللامرئي هو أساس وحدتنا، يكرر القول مع أفراد القبيلة أن سعادتنا هي في كاهن

يترأس معابدنا ومعاركنا، قبائل أخرى كثيرة لديها أسلحة قبل الحرب، ومناعة أثناء الحرب و مخلفات بعد الحرب، أما عشيرتنا فعكس ذلك كله. حين حاورنا كاهناً أصغر وبحضور أبي عفاف عن سر ذلك، لم ينتقد حالنا، ولم نعرف له رأيا محددا، بل دعانا لزيارة القبور، والإكثار من اقتناء الطيور، ووعدنا ببناء بسيط عجيب، لكنه كبير مهيب، كله خطوط مستقيمة لا انحناء فيها ولا دوران، ودون زخرفة ولا دهان، وحتى حجارته بلا ألوان، إنها بين الأصفر والبني والبيج والحمرة، تتخللها خطوط صاعدة نازلة طولا وعرضا، ومداميكه لا تكاد تظهر حتى لا نعرف بداية الحجر من نهايته، حتى تكون هي الأخرى كتراثنا جزء من اللامنظور، لا ندرك سرها، ولو كنا ندور قربها، وحين نجتاز المدخل داخلين ننسى كل شيء قلناه أو فعلناه خلف الأبواب، لا نحفظ حتى مواقع المداخل أو المخارج، والفضاء الداخلي ليس له شكل مميز، لا تدري إلى أي جهة تسير، لا تشكو ولا تتذمر، نقبل كلنا كل شيء على علاته، حتى لو طلب منا أمر غير مفهوم، نحس بصغار ولا نجرؤ على الإفصاح عما بنا، بيوتنا وخلواتنا هي الأماكن المناسبة التي نجد فيها متنفساً لنا، لكن طبيعتنا عجيبة غريبة، نحتمل الضيم كالجمال، ولو طلب منا تسلق أخشن الجبال. قالت شقيقته ربة البيت

- ربما أن الشمعة على وشك الانطفاء، والكهربائيون وعدوا أن يعيدوا التيار قريباً، لكن روائح الرفات تزداد لحظة بعد لحظة.

تظن نفسك صاحياً، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون وهماً، حتى في حضرة أبي عفاف كاهننا و زائرنا الليلة، رسخ في ذهننا أن حضوره المفاجئ وللمرة الأخيرة ليطمئن أننا نحافظ على اللامرئي أساسا

لوحدة كياننا ومجتمعنا، فأبو عفاف خير نموذج يمثل الفرد فينا، لا يكشف عما يريد مباشرة.

قبل ثلاثين عاماً أحضر لي مفتاحا جديدا لدارنا المكونة من غرفتين، وفي زيارته لمنزلنا الليلة يطلب نسخة من ذلك المفتاح لنفسه، حتى يستطيع دخول البيت دون أن يزعجنا للاستراحة فيه في غيابنا، يغمزني ويؤشر لي طالبا هامساً مؤشراً بأصبعين، أو هو يأمرني بعمل نسختين من المفتاح، وحين سألته في حضرة سيدة البيت، احمر وجهه واصفرّ في حرج، أدار وجهه متأففا من ضعف فهمي، وما إن غادرتنا شقيقته لتعليق ملابسه التي كان يرتديها، حتى صاح بي هذه المرة على غير عادته مؤنباً قائلاً

– سأحتفظ بنسخة سرية معي، لا يعلم بها أحد، وعليك أنت أيضا الاحتفاظ بنسخة إضافية لا تعلم فيها زوجتك. لا نستطيع أن نكشف للنساء كل شيء، هناك أفعال كثيرة علينا فعلها حسب أصالة تراثنا اللامرئي، ليس من الحكمة أن نكشف عن كل ما نفعل أو كل ما نقول، كنوزنا لا مرئية باطنية نفعية براغماتية، وإذا اضطررنا فعلينا أن لا نعترف بسهولة، فهل في هذا ضير أو ضرر؟ صمت ثم أكمل: (لنا طبعا؟) نظر حوله مستطلعاً ليتأكد من عدم وجود أحد الأطفال النكداء، فرك يديه في شبه ضيق، وأنا أنتظر في هيبة وتوجس تعابيره وكشوفاته، نظر إلى عينيّ ربما ليكتشف مدى اهتمامي بجديته، ثم تساءل ثانية

– هل في ذلك ضير أو ضرر علينا؟

انتظر جواباً مني لكنني لم أنبس ببنت شفه، اكتفيت بهز رأسي، وتركيز نظري على ملامحه، ثم أكمل: كثيرون من الغير مرتاحون

بغفلتهم وسذاجتهم، ولا نستطيع أن نكون وكلاء الطيبة على هذه الكوكب، وتلك نقطة بسيطة تضاف إلى معمار فلسفتنا اللامرئية فاحفظها واركب الهواء، ثم اختفى.

أحسست لحظتها بجهلي وبسذاجتي، لم أجد جوابا له أثناء حضوره، لم يكن أمامي سوى السكوت، حاولت فعل شيء آخر أكلمه عنه قبل اختفائه، لكنني انشغلت عن الظالم والمظلوم والحاكم والمحكوم، وأحسست أن عقلي لم يعد يستوعب ما مرّ بي، كدت أنسى الماضي حزنا و خوفا، أما المستقبل فلم يعد يقلقني، لكم تمنيت أن أعرف كيف سيكون حالنا تحت الكاهن الجديد الأكبر، غاب أبو عفاف، لا نذكر ثانية كيف ولا متى اختفى، غادرنا على أساس فلسفتنا أي بطريقة لا مرئية، لم يشهد أحد أنه رآه أو سمعه وهو يغيب، فتحت عينيّ كالمذهول لم يعد للزمن معيار في مفهومي، لا أتذكر الوقت الذي مر، ولا أعرف هل كنا في ليل أو نهار، نوم أو صحو، موت أم حياة؟ حتى الشمس والقمر أصبحتا من اللامرئيات، لكنني لمحت طرقاً نظيفة مثيرة على أطراف الأفق، وخضرة كثيرة تحفّ المبنى غير المرئي والذي يوحدنا ونحن ننظر في وجوه بعضنا ونتكاثر ونتجمع، لكن اللافت للنظر أنني لم ألحظ من يجرؤ على النظر إلى أبعد من ذلك.

في منتزه عمان القومي ٢٠٠٢/٥/٢٥

الخمسون طاروا
THE FIFTY FLEW AWAY

حماتي امرأة لم تبلغ سن السبعين بعد، لم تكن المدارس قد فتحت أيام طفولتها في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، أي أيام الانتداب البريطاني، وخاصة لبنات القرى في فلسطين، أما بعض الأولاد فقد تعلموا في الكتاتيب في المساجد وعند المشايخ، بقيت حماتي أمية كغيرها من نساء القرية،. لكن بسبب كثرة تعاملها مع الرجال وذكائها، عوضها كثيرا عن خسارتها نعمة التعلم.

مرت خبرات كثيرة على حماتي وعانت من متاعب علمتها المهارة في الحوار، نجحت مع زوجها الهادئ جدا في اجتياز السنوات العجاف التي مرت على معظم الناس في الأردن في عقود الخمسينيات والستينيات، أثمرت شطارتها في رعاية أسرة كبيرة وبأطفال ذكور وإناث بلغوا التسعة في مجموعهم، زوّجت أولادها الثلاثة وبناتها الستة في حياتها، لم تفقد حماتي سلطتها على أسرتها حتى بعد تزويج الأولاد والبنات، ظلّت كلمتها هي الأولى، تراقب من تشاء، وتنصح وتوبخ من تشاء، وتصفح عمّن تشاء، تطعم من تشاء وتحرم من تشاء، وقد تلجأ إلى الضرب أو التعزير لفرض كلمتها، وربما يصل الأمر إلى إذلال من يخطئ من أفراد أسرتها، زوجها عكس طبيعتها تماماً، يتأمل ما تفعل، هادئاً قانعاً مطمئناً لا يرمش له جفن، وقد لا تخرج كلمة من فمه، وإن تحدث أو وافق أو اعترض فبشبه الهمس ، ومع كل ذلك السلطان الذي

تتمتع به حماتي تفاجئنا أحياناً بدموعها تجري على وجهها بغزارة بعد عقاب أي فرد من أسرتها، يعلو صياحها وهي تلطم الخدود، وقد تطول نوبة بكائها حتى يعمد الفرد الفريسة المغضوب عليه والمعاقب إلى استرضائها وطلب الصفح، وبعد إلحاح من الولد الشاب أو البنت المراهقة تهدأ دون حراك لدقائق قد تطول أو تقصر، بعدها تبتسم وهي تهمهم كلاماً غير مفهوم، ثم وهي تضحك وبالأصح وهي تقهقه، تعيد توضيح الموقف بتبريره أو للتخفيف من وقعه، مظهرة ندمها عما فعلت، تدعو الله أن يكسر يدها، أو يقطع لسانها، أو يكسحها لأنها أهانت بنتا من بناتها أو لأنها ضربت ولداً من أبنائها، أو إذا ضايقت زوجها الطيب المسالم النادر في هذا الزمان، زوجها يكاد لاينطق كلمة في حضرتها، ليس خوفا بلا شك، ولا بد أن نسأله عن ذلك السرّ يوماً ما، أما موضوع قصتنا اليوم فهو حماتي الحميمة العظيمة، وليس حماي الذي له قصة أخرى.

ولأن المتوفى من أقارب زوجتي فلا بد من الذهاب إلى الصيوان المنصوب في الشارع للعزاء، شربنا القهوة المرة، وكانت فرصة فريدة للقاء المعارف والأصدقاء من أبناء قريتي، وخاصة أصدقاء الطفولة. سمعت تفاصيل موت الشاب من عمّه، مات في اليوم السابق تحت ركام السيول الجارفة والأمطار الغزيرة في إحدى الأودية السحيقة في جنوب الأردن، وفتح بيت العزاء في الشارع العام قرب بيت الميت لثلاثة أيام،

أتوجه إلى منزل حماتي بعد تقديم مراسيم العزاء، حيث سبقتني زوجتي هناك، كنت أحاذر الانزلاق أو الوقوع عن الدرج النازل لمنزلهم في حي أم تينه بمنطقة مثلث الجوفة في عمان، وكنت دائماً أخشى أن

يهوي قط على رأسيي، أو أن يفاجئني طفل مختبئ شرير ويصيح في وجهي أو قربي، نسيت الحزن على الشاب القتيل، والخوف من الظلام في النزول حين بدأت مرحلة صعود الأدراج الطويلة، أحسست بالنشاط والقوة وأنا أصعد السلم الصعب مرتفع الدرجات إلى الطابق الرابع، أردت أن أسابق ابني الذي يبلغ أحد عشر عاماً، منشغلاً أفكر في التعبيرات الأولى التي سأقولها لحماتي لدى وصولي.

- أين ذهبت الدرويشة ؟ ناديت فور تخطي عتبة الشقة، أروني الأضحوكة ؟ أو هل قصدت إخراج زكاة أو صدقة؟ (وين الشطارة) والفصاحة وتجارب السنين الطوال؟ انهالت كلماتي وانهمرت اتهاماتي لحماتي، أعرف أنها تتحمل مزاحي مهما قسوت عليها، متماسكة تضحك وتهتز أعطافها، وأنا ألهث وأحاول إخفاء تعبي من عناء صعود الدرجات الصعبة، تحاول أن تقطع عليّ اتهاماتي المتوالية، أو توقفني عن الهجوم والملام، وما زلت لا أقوى على التقاط أنفاسي.

- (شايف بالله ! شايف!) إنها أول مرة تحدث لي في حياتي، ثم أنا لست الأولى التي يحصل معها مثل هذه المصيبة، ألا تذكر ما حصل مع (أبو محمود) زوج أختي قبل شهر؟

أحمل فاتورة الهاتف وأسأل موظفة التحصيل، تحيلني إلى غرفة أخرى لمعرفة ما إذا كان علينا مبالغ قديمة غير مسددة، بعد خروجي من الغرفة الأخرى يلاقيني شاب في أواخر العشرينيات من عمره ثم يسألني

-كم مبلغ فاتورتك يا حجة ؟

ما إن وصلت خيمة العزاء، حتى أتوا للحاضرين في الصيوان بحلوى دسمه، كانت رديئة الصنع ومن نوع رخيص، وطعم الزيت فيها قديم، أكلت لقمة من (الوربة) التي قدمت لي ثم لففتها في منديل الورق ووضعتها تحت الكرسي الذي أجلس عليه، وبيت العزاء يبقى مشرعا أياما ثلاثة على الأقل فارغا أو شبه فارغ في النهار، أولاد قله يحرسون الكراسي المستأجرة لهذا الغرض، ثم يبدأ توافد الرجال بعد صلاة العصر حتى بعد صلاة العشاء. وحين دعاني ابني ودعت الناس لألتحق بزوجتي عند والدتها.

تجيب حماتي الشاب الشهم الذي أراد مساعدتها في دفع فاتورة الهاتف بسبب الزحام الشديد

- أخبرتني البنت التي في الغرفة الثانية أن ما يستحق علينا خمسة وثلاثون دينارا.

وقبل أن تزيد في شرحها كعادتها، تكمل شرح الموقف قائلة، يتأملها وهو يحملها ماشياً صوب طاولة جانبية في نفس غرفة الموظفة التي تقوم بتسديد الفواتير، كان يرتدي نظارته على عينيه، يسحب قلما من جيبه، يدقق الفاتورة، يؤشر عليها بقلمه ثم يقول:

- صحيح! خمسة وثلاثون، أعطني المبلغ حتى أسدده لك وأريحك من الانتظار يا (ختيارة)

يتناول الخمسين ديناراً مني، يمشي بتثاقل وأنا أمشي بمحاذاته أو أتأخر قليلا، انعطف يسارا فتبعته، توقفت لثانية لأرى ما سيفعله، لكنني تقدمت خطوتين أو ثلاثا فإذا بدرج صاعد للطابق الثاني، نظرت للأعلى لأتبعه فلم أر أحداً صاعدا، أمسكت بسياج الدرج الحديدي،

فإذا بدرج نازل أيضا صوب باب خلفي في (البدروم)، لا أثر لأحد صاعد ولا نازل، انتظرت ثلاث دقائق أو خمساً بعد أن اختفى الشاب، أعود مسرعة لغرفة السكرتيرة أسألها

- هل يأخذ تسديد الفاتورة وقتاً طويلاً

- أقل من دقيقة عندما يأتي دورك

- موظف عندكم تبرع بمساعدتي قبل خمس دقائق، أخذ المبلغ مني لتسديدها ولم يرجع لي الفاتورة ولا الباقي من الخمسين ديناراً

- أهو من أبنائك أو قريبك؟

وبأعصاب باردة، وضحكة مكتومة طلبت مني أن أذهب للمدير

- إنكم حرمية سارقون !

- ماذا جرى يا حجة ؟ يسألها مدير القسم

- يا بيك، يا ابني، لقد سرقت! ألا تعلم أنني سرقت؟ ..تحاول أن تبتلع ريقها، لكن زبداً خرج على طرف فمها، فصارت تحاول أن تكمل كلامها بصعوبة، حلقها جاف ولسانها أصبح بطيء الحركة، تهبط على بلاط الحجرة، ثم في شبه غيبوبة تقول، أنتم حكومة؟ أنتم لصوص! أين ذهب؟ أين طار؟ الله أكبر .. أين اختفى؟ هنا في المكتب الآخر جلس على طاولة الحكومة، في الغرفة التي فيها موظفة التحصيل وجميع الواقفين لتسديد فواتير هواتفهم (الله أكبر! أين الشرطة؟ أين الحكومة ؟ أين الأمان؟)

حين يجتمع كبار السن في أي مجلس عزاء أو فرح، يلتفون حول بعضهم، وتبدأ الأحاديث عن الذكريات، وتكثر المعاتبات عن القطيعة والنكات (مسكين ذلك الذي ارتحل عن هذه الدنيا، ومسكينة أمه حيث

لم يبلغ الواحدة والعشرين بعد، ورحم الله أباه الذي توفي بمرض عضال قبل عام) ، هذا ما قاله أحدهم.

تزداد عينا حماتي انفتاحاً، وقبل أن يهم بالنداء على موظف مساعد أو حارس، بلهفة تتنحنح العجوز، تسأل مدير القسم الواقف حائراً

- ماذا أفعل يا ربي!.. ساعدني أيها المدير، أخذ الفاتورة مني ليسددها لي، أكد لي أنه موظف عندكم.

- نعم وما المطلوب مني. .؟

- ذهب ولم يعد. . يا بيك، يا بنيي!

- لم يعد؟ ومن هو؟ وأين ذهب؟

- ذاب كالملح ، طارت الخمسون دينارا وأخذ الفاتورة معه.

- الله يعوض عليك يا حاجة، كيف سنعرفه، ومن أين سنأتي به؟ إذا استطعت الإمساك به سيلقى جزاءه. ينادي الموظف المختص، يبلغه أن لا تقطعوا الحرارة عن هاتف منزل العجوز حتى تسدد المبلغ مع قيمة الفاتورة التالية.

عمان في ١٠ /٥/ ٢٠٠٠

عزام يقول : عادي
AZZAM SAYS: NORMAL

– لا أريدك أن تنسى حين حملتك للطبيب، كنت طفلاً بعمر يتراوح بين الأربعة أعوام أو خمسة، فهل تذكر ذلك يا عزام؟

– دخلنا عيادة طبية أو مستشفى صغير يا والدي، وبغرف لا تتجاوز أربعة مخصصة للمرضى.. أما تلك الملجأ الصغير في إحدى زوايا صالة الاستقبال، فكانت كأنها مكان خلوة لراهب في كنيسة في قدس القرن الحادي عشر، والآن دعني أحكي عنك وأكمل ما أستطيع تذكره، وإن نسيت أمراً تذكرني أنت، كنت ليلتها صغيراً وموجوعاً، لم أعرف ماذا يستفيدون من تلك الغريفة ولا لماذا يستعملونها، أما الغرف الأخرى التي تواجهنا فأنوارها كابية وبعضها بأنوار ضعيفة للنوم، لا ألمح ممرضين ولا أطباء في الغرف ولا حتى مرضى، يبرز شخص فجأة وبعيداً عن مكان وقوفنا كأنه طبيب، لا أدري من أين برز، أو ربما أزعجتهم دقات حذائي الذي أصلحت كعبيه قبل أيام ثلاثة، تحدث الطبيب أو الممرض مع أمين الصندوق خلف مكتب صغير مثبت في ركن في الممر الطويل نسبيا، ساعة حائط متوقفة واسعة الدائرة، وعقاربها واضحة وأرقامها تقرؤها عن بعد، تشير إلى أنها توقفت عند الواحدة وعشر دقائق، لا ندري أي يوم أو أي شهر أو أي فصل أو ربما قبل أكثر من سنة، وهل كان الوقت ليلاً أم نهاراً حين توقفت؟ والأيام والأوقات تتشابه هنا في المستشفيات والعيادات الطبية، أرى الموظف بعد أن رفع رأسه يتحدث

للطبيب، ألمح ممرضا آخر أمام باب غرفة أخرى يتحدث مع شاب نحيل، ربما يكون متدرباً تخرج حديثا، أويجري تدريبه لتوظيفه.

وقت وجودنا هناك غير ملائم لي ولا لصحتي، ولكن للضرورة أحكامها، اضطررت أن أكون في ذلك المكان لمساعدة أبني عزام، بعد الظهر أو هي أقرب للعصر، ويبدو أن معظم العيادات الطبية في عمان تكون شبه هادئة، وبعض الأطباء غفوا وقت القيلولة، إما للراحة أو تخلصاً من هموم زبائنهم ومن تنوع عللهم، عارفين أنهم سيتأخرون في العودة لمنازلهم مساء، ولدي عزام كان متألما، كنت أطمئنه أن آلامه ستخفّ بعد لقاء الطبيب.

آه يا عزام لو تعلم كم عانينا أيام طفولتنا نحن!.. المستوصف الوحيد بين عشرة قرى كان بلا طبيب، وكنا نحتال على المرض إن وجدناه بمختلف الوسائل، كالنفاق والرشوة والوعود الكاذبة بوليمة دسمة له، أو نحمل له قليلاً من الجبن البلدية أو من ثمار التين، أو علبة سجاير، حتى يقبل أن يغرز إبرة في جسدنا ولو لم نكن بحاجة لها، إبرة مضاد حيوي أو فيتامين أو مسكّن، لوجع البطن أو الرأس أو المفاصل، أو من أجل حفنة لعلاج الإسهال أو حبوب لعلاج الإمساك، ليتك تستطيع أن تتصور يا ولدي القلق الذي كنا نحسه قبل انغراس الإبرة في لحومنا أو بعدها. يضطرب عزام حين يسمع ثغاء طفل عالياً مخنوقاً، يلتصق عزام بأبيه، يمسك والده بيده ويشدّ عليها مشجعاً متظاهراً عدم المبالاة، لم يذكر له كلمة «الرعب» لأن أكثر خوفه وتشاؤمه من هذه الرحلة هو قلقه من حقنة يجربها طبيب عليه.

– هل تسمعني يا عزام؟ كانت إبرة أو ابرتان وحيدتان في المستوصف لكل المرضى والمراجعين من القرى العشر، بل قل لحوالي ثلاثين ألفا من البشر، يستعملها الممرض ويعيدها في الماء المغلي، وربما تغلى ثانية بعد الظهر.

يكمل والد عزام حديثه، كان ربك هو الساتر والمعافي، منظرها منفّر، كأنها قارورة عطر نحيفة قديمة خشنة الملمس، يتثلم رأسها المعدني من كثرة الاستعمال، والإبرة الناخسة هي الأخرى أنبوب معدني بمجرى واسع نسبياً لسرعة دفع الدواء بين ثنايا لحم المريض الذي قد لا يلزمه إبرة. ينتبه عزام فجأة ويلقى بنظرة تأمل واستغراب لوجه والده بعد سماعه جملة (قد لا يلزمه إبرة)

– هل كنت تحس بألم شديد عند تناولك حقنة الطبيب الكبيرة يا أبي؟

– كان ممرضاً وليس طبيباً، والمحظوظ يصدف الطبيب الذي يحضر مرة في الأسبوع، كنا نعتقد أننا لن نشفى دون أن يغرزوا إبرة في أجسادنا، نلحّ على الطبيب أو الممرض باللجوء للإبرة بدلا من الأدوية التي تؤخذ عن طريق الفم.

لا يريد والد عزام أن يذكر المزيد عن إبرة الممرض القديمة، فيحادث نفسه، "يزداد رأسها تثلما من كثرة الغرز والدق، يضطر الممرض والطبيب لاستعمال القوة العضلية والتفنن في غرزها بإبعاد يده للوراء كثيرا، ثم ينقض بها على لحم المريض، كي يضمن أن تغرز في أعماق بدنه بأسرع ما يمكن، لتقليل الثواني التي نحس فيها بالألم، وقتها ينسى المريض شكواه التي حضر للمستوصف من أجلها من شدة الحرقة في مكان الغرز والألم، لا فرق بين غني ولا فقير، ولا بين رجل أو

امرأة، ولا بين طفل أو كبير."

– و لماذا كنتم تطلبون الإبرة؟ إنني لا أريد أن يغرز الطبيب إبرة في جسدي. ألا يشفي الدواء السائل من المرض؟

– عيب كبير أن نجبن أو نجفل من إبرة الطبيب يا عزام، ثم أكمل في أعماقه قائلاً "ولو مثلمة"، ينتظر المريض بين عشرات المرضى حتى يأتيه الدور، ويحتمل القلق والرهبة حتى يبدأ الممرض بالدعك والتدليك بقوة وقبل أن يبدأ بضغط شديد مكان غرز الإبرة، أما هذه الأيام يا بختكم أنتم، إبرة جديدة لكل مريض (يسمونها ديسبوزابل يا عزام؟ هل شرحت لك المدرسة معنى هذه المفردة الإنجليزية؟) أي يستعملونها مرة واحدة ثم يرمونها بعدها، دقيقة الرأس و حادة، و تغرز في اللحم دون مقاومة، ولا حاجة لقوة لدفع مابها في أعماق إلية المريض، معقّمة داخل كيس بلاستيكي مغلق ولا حاجة لغليها.

– وهل كل الأمراض يلزمها إبرة يا والدي؟ إنني لا أحس بألم يا والدي، بل شفيت تماماً، فأرجوك أن تعود بي إلى البيت،

– لكن لا بد من مقابلة الطبيب، وقد صرنا هنا في المستشفى،

– إذا كان الأمر كذلك، أرجو أن تطلب من الطبيب أن يعطيني دواء سائلاً، وأعدك أن لا أعذب والدتي ولا أضطرك لمعاقبتي، بل سأشربه وحدي في البيت.

– لم نكن نخشى الأطباء ولا الممرضين والممرضات، كنّ في أيامنا قليلات، وإن وجدن، فالممرضة أو الداية سمينة قوية الملامح، تخيف الأطفال فقط، لكن الكبار كانوا يحاولون الصبر حتى يفلتوا من يديها القويتين، ومن أنفاسها الثقيلة، ضخمة وخاصة في منطقة كتفيها

وصدرها وثدييها، أو من انبعاج بطنها أو ردفيها .

– بابا؟ أرجوك! ..لم أعد أشعر بألم، لا أريد إبرة ! سأقبل أن أشرب الدواء المر هذه المرة، وأعدك بأن أشربه كل يوم حسب أمر الطبيب حتى ينتهي كل ما في الزجاجة.

حركات في قاعة استقبال المرضى الكابية، أربعة موظفين أو خمسة يجتمعون حول طاولة، وثلاثة من المرضي يغالبون المرض ويحاولون الوقوف، يلح طبيب أو ممرض على الحاضرين لتناول الحلوى أو ما تيسر من قطع الكيك التي صفّت بعناية على المنضدة، وكانت بأشكال وألوان وأحجام مختلفة.

– هل تشترون هذا التفنن يا دكتور أو تنتجه إحدى محلات الحلويات لكم؟

– كلا!، كلا!.. لدينا فرن جيد هنا، كانت إحدى الممرضات تقوم بعمل مثل هذا الكعك لنا و لزوارنا، لكن بعد أن أصيبت بجلطة ورحلت صرنا كلنا نستطيع فعل ذلك، أطباء وطبيبات، ممرضون وممرضات.

– منظر حلواكم جذاب و مغري يا دكتور، ومع أن معدتي مملوءة بالطعام، لكنني أشعر برغبة في تذوقه.

– هيا اخدم نفسك بنفسك، واليوم هو عيد ميلاد ابن صاحب المستشفى الطبيب الكبير، خبزنا كمية كبيرة، فتفضل !

– حضرت لفحص طفلنا وعلاجه، يتألم ويتلوى منذ الصباح، و زاد سوءا بعد غداء اليوم، فلنفحص الولد أولا.

– أراه قويا يسابق فيك، وعزام ولد كبير لا يبدو عليه المرض، هل ستأكل الكعك اولا ثم نذهب لفحصك يا عزام ؟

– أريد العودة عند ماما، لا أريد الكعك ولا أريد أن تغرزوا إبرة في جسدي، عربة الأدوية عالية نوعا ما تقترب، تصدر عجلاتها صريرا قويا وهي تنزلق على البلاط، تخرج كل عجلة صوتا مختلفاً عن الآخر، تعلق إحدى عجلاتها بحفرة صغيرة في أرضية الغرفة، يرفع الطبيب قميص عزام، تلمس ظهره وبطنه ودقّ مرات عدة على صدره وظهره، وضع السماعة عليهما، يربّت على ظهره وكتفيه قائلاً.

– ما شاء الله ما شاء الله، عزام ليس مريضا ولا يحتاج إلى علاج طويل، إنها إبرة واحدة، و سيخرج من هنا راكضاً مرحاً، ويستطيع أن يكمل لعبه مع أصحابه هذا المساء.

– هل تعتقد أنه تضرر مما توفر في منزلنا من طعام الأمس؟ مضطرون للتوفير، وأنت تعلم حال الناس الاقتصادية في السنوات الأخيرة، لم يجب الطبيب على تساؤل والد عزام، فأكمل متسائلاً

– الإبرة هي التي ستفعل المعجزات .

يلتصق عزام بي، خنق المسكين بكاءه، كاد يختفي في ملابسي، أجبرتك يا عزام على أخذ الإبرة، ثم يقودنا الطبيب إلى طاولة الكعك، نفر عزام من قطع الكعك التي عليها مسحوق أبيض، وبدأ طاقم المستوصف بغناء، يعلو صوت طبيبين وثلاث ممرضات، هابي بيرث دي تو يو.

– هل لاحظت الكعك المبيّض يا عزام؟

– عادي، الكيك الذي يبيعه الدكان في حارتنا يغطيه مسحوق أبيض مثل كعك المستشفى، لا أحب هذا النوع لأنني لا أريد أن تؤلمني بطني ثانية.

فبراير شباط ١٩٩٩

تزوج بعدها بأسبوعين

MARRIED TWO WEEKS LATER

أرض قريتي نصفان، نصف لأسرة واحدة والنصف الثاني لمائة واربعين أسرة، لا عداء في القرية ولا تحاسد، لا ضغينة في قلوب ولاتحديات، لاإحساس بظلم أو ضآلة بسبب شخص، النصيب والحظ هما سيدا الاعتقاد لدى أهل قريتي، لا تباعد من أفراد العائلة الغنية ولا تعالي، يحترمون ذلك الشيخ الغني ويجلونه، يقدمونه في الاجتماعات العامة إذا حضرها، وقليلا ما يحضر، ليس تباعداً ولا كبراً، همه العمل على ترتيب أمور أهله، ولتزداد ثروته اتساعاً، يفسحون له صدر المكان حين يحضر مجالسهم، ومن ناحيته لا يشعر أبو رشيد أحداً من أهل القرية أنه أعلى شأناً أو أكثر أهمية، أو ان ما جمعه من غنى واراضي كان حقاً مكتسباً له، كثير التواضع، جمّ الأدب، يميل بجسده الطويل إلى مجاوريه يحادثهم، وقد يهمس في اذن القريبين منه بصوت خفيض حنون، يسأل عن أحوالهم وأحوال أطفالهم وعائلاتهم، وعدد الأطفال الذين رزقوا بهم حديثاً، ومع أنه الأغنى فأبو رشيد لا يقاطع أهل قريته في مناسبات الأفراح والأتراح، هجر منزله القديم الأثري الموروث عن آبائه وأجداده وسط القرية بين البيوت الطينية المتراصة، وانتقل إلى بيت واسع وأرض واسعة حوله أشرف بنفسه على بنائه، كنا ونحن أطفال كلما مررنا قرب بيته القديم أو جرينا على سقفه نتساءل ماذا ترك بداخله، وهل يخبى شيئا من الذهب أو الثروة فيه؟

باب بيته القديم المصنوع من خشب غير متناسق ومتقادم لكنه قوي متين متماسك، تدخل القططط والحشرات الأصغر تحته أو من جوانبه ، وقفله خشبي لكن لا يسهل على أي فرد فتحه لو أراد، أهل قريتنا مسالمون، ولم نسمع عن أفراد احترفوا اللصوصية أو إيذاء الغير، انتقل مع أسرته إلى بيته الجديد وشارك أبناؤه الثلاثة في البناء والوقوف مع البناء والعمال، ثم خصص أبو رشيد غرفة كبيرة لكل ولد من أولاده، وتلك كانت نعمة لم يحصل عليها معظم شباب القرية، والغرفة كنا نسميها بيتاً حتى الستينيات من القرن العشرين، لأنه عادة ما يكون أمامها وخلفها أرض مزروعة أو خالية لتحرك الأسرة والحيوانات والطيور، أو لزراعة شجرة ليمون أو تين أو عنب، أو يبنون كوخاً صيفياً للمكوث فيه أيام الحر، أو لمبيت الضيف، كان بيتا واسعا في مفهومنا في الأربعينيات من ذلك القرن، يسكن هو وعجوزه وابنه الشاب الأصغر الأعزب في الغرفة الوسطى، والولدان الآخران المتروجان فيحتلان الغرفتين الطرفيتين، ومنذ رحيله لمنزله الجديد الواسع لم نعد نراه إلا في القليل من المناسبات، كوفاة كبير في السن أو في عرس ابن شخص له أهمية في عشيرته أو في القرية كلها، لكنه يستحيل أن يغيبب عن حضور احتفال عودة أي شخص في القرية بعد تأدية مناسك الحج، يستمع الجميع بآذان صاغية عما عاناه الحاج، أو ما أثار فضوله، وأبو رشيد سبق له وحج مع زوجته، وكان يسأل الحاج العائد كيف وجد مكة والمدينة المنورة ليقارن خبرته بهما بما يسمع من جديد عنهما بعد مرور عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً، وما هي التغيرات التي حصلت بعد حجته تلك، يقترب بجسده كله حانيا ظهره الطويلة، ومادا رقبته،

ومركزاً عينيه على كل حرف وكلمة يقولها الحاج الجديد، وكلما سمع أن تغيرا ما، أو تحسنا طرأ، دعا في داخله ولكن بصوت مسموع قائلا :(اللهم لا تمتني قبل أن تطعمني إياها ثانية) كانت معظم طرق الحج غير مأمونة عندما سافر في حجته الأولى على ظهور الجمال، بل ومشيا في مراحل أخرى كثيرة.

في مثل تلك الجلسات واللقاءات والمناسبات، وحين تعز الأحاديث المسلية يلح الحاضرون عليه أن يروي لهم عن سيرته في السنوات التي قضاها أسيراً في روسيا، أيام الحرب العالمية الأولى، فإن قبل التحدث، كنتم تلمسون حماسا لديه ورغبة شديدة لا نظير لها، في إعادة تلك الحكايات ربما للمرة المائة، ينظر حوله كأنما يستطلع آراء الحاضرين، يجول بنظره وينتظر علّ أحداً يعترض أو ربما لا تكون له رغبة في سماع تلك الحكاية المثيرة، يطيل انتظاره ثم يستدرك أنه سبق ورواها عشرات المرات من ألفها إلى يائها، وخاصة عن معاملة الروس للأسرى المسلمين، وأنواع الطعام الجيد للأسرى برغم الأشغال الشاقة التي كانت تفرض عليهم، ثم البرد القارس الذي كان أكثر ما يعذب السجناء والأسرى، الذين لم يعتادوا على برد تلك البلاد، وعنما لا يسمع اعتراضا، بل في الواقع يلح عليه أفراد عدة ليسهب في قصه ووصفه، تماما مثلما كان مطلبهم من الراوية التاريخي والذي اعتاد أن يزور القرية مرة أو مرتين كل عام، وبعد صلاة العشاء يشدد الكبار عليه أن يبدأ بتسليتهم بسيرة عنترة بن شداد أو سيرة الزير سالم، أو حتى قصصا من ألف ليلة وليلة. كان الحاج أبو رشيد رزيناً لا يتسرع، تراه مطرقا حينا ومستطلعاً الوجوه والأعين تارة أخرى، كأنما يعطي

لنفسه الوقت الكافي ليتذكر أو ليقرر من أي نقطة يبدأ، وعندما يطول انتظارهم، يسألهم سؤالا مختصراً قائلا : هل أنتم مصرون وراغبون في سماع حكايتي مع الروس في الأسر، لم يكن يعدم إجابات متسرعة تحثه على البدء أو مواصلة الحديث دون تأخير، فيحسون أنه ينسى شيخوخته ويتصور نفسه شابا قويا، وحين يصف كيف نجا من القتل بعد أسره، يطول حديثه باللغة الروسية والتي كان يتحدثها، ولا يدري أحد ماذا يقول، لكنه يفسر للحاضرين معاني بعض المفردات، مكث في الأسر سنوات عشر، تحسون أنه نفسه غير مصدق كيف نجا من القتل أثناء المعركة ولا بعد استسلام حاميته، يصف كيف شاهد الروس يذبحون زملاءه أو يدوسونهم بالخيل والعربات، ويجهزون على من كان به جرح أو إصابة، إنه لا ينسى ويكاد لا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما مرّ به أو رآه إلا وله قدره على وصفه، تنتبهون له، بل تشنفون آذانكم مهما كثر عددكم، لا همس ولا حتى حركة من أحد، وترى أن أعين الجميع كلها مركزة عليه، ورغم أنه أعاد تلك الحكاية مرات كثيرة أمام أهل القرية إلا أن أسلوبه وذكاءه وجاذبيته تجعلهم وكأنهم يسمعونها للمرة الأولى، وإذا قدم أمرا على آخر، هدّأهم بحركات من يده : ثم يقول للجميع (سيأتيك ما تريد) أي أنه كان يتفنن في رواية حكايته وتقديم أو تأخير أحداثها، زيادة في الإثارة، تمنيت نفسك مرات عدة أن تتعلم منه فن الكلام، ولحسن حظك أن والدك كان صديقا له، أو أنه كان محتاجا لوالدك الذي يشرف على تعليم أولاده الثلاثة القراءة والكتابة والحساب والقرآن .

كلما أتى على ذكر موقف محرج نجاه الله فيه من الموت يستقبل القبلة يركع مرتين ثم يقبل الأرض شكراً لله على سلامته، وحين أمسك الروس به وجدوا أنه يعرف بعضا من مفردات اللغة الروسية، لأن رفيقاً له من أذربيجان كان يتقن الروسية وتعلم منه الكثير من مفرداتها، ثم يقطع حديثه قائلا :

لي نصيب أن أعود إلى بلادنا التي بارك الله حولها فلسطين، وها أنا كما ترونني أجلس سعيدا بينكم، ورزقت من المال والولد في هذه الأرض الطيبة وبين أهل بلدي الطيبين ، حتى أن الروس حين عرفوا أنني من منطقة القدس، حسدوني وتمنوا عليّ أن أغير ديني ليتبركوا مني، وكانوا يكثرون من السؤال عن القدس وكنيسة القيامة والأديرة الروسية التي وافق صلاح الدين الأيوبي لهم على بقائها، وأعطى القائد المسلم المؤمنين من المسيحيين حرية العيش والعمل في فلسطين بشكل خاص، ثم يقول: يا أخوان لا تأمنوا للروس، فعقولهم عجيبة، ولا ينسون الإساءة مهما طال الزمن.

تأمل الناس فرأى أنهم متنبهون له وعيونهم متجهة إليه، ومال بعضهم للأمام وسند كوعيه على فخذيه لشدة اهتمامه بما يسمع، عرض الضابط الروسي على الحاج (أبو رشيد) الزواج والاستقرار في بلاد الروس،

- إلا أنني كنت أجيبه في كل مرة سبباً منها أن لي زوجة وأطفال في بلاد الشام، مع أنني كما تعلمون لم أكن متزوجا بعد، وأحيانا أقول له لا أفكر بالزواج ولا بالنساء، ومرات أنني لا أرغب في الزواج من امرأة غير مسلمة، كان جوابي ذاك يغضبه جداً، لكنني كنت سجيناً

ولا يهمني إن رضي أو غضب، وكانت سنّي في الواحدة والعشرين من العمر وكان قد مضى ما يقارب السنوات الخمس وأنا أخدم في الجيش العثماني قبل أسري . سأله أحد الحاضرين :

-هل النساء الروسيات جميلات يا أبا رشيد؟ يمد أصابعه لفتح كيس دخانه، ويلف سيجارة ثم يشعلها، يتنهد ثم يقول

- جميلات وغير جميلات، كلهن يتميزن ببياض البشرة، لكن نفسي لم تكن تميل لهنّ، وهناك جمال لا تستطيع أن تقاوم تأمله وإطالة النظر إليه، وخاصة للطويلات منهن وذوات الشعر الأشقر الذي لا يخالطه كدر ولا نمش، ولا أخفي أنني كنت أسمح لنفسي التمتع بالنظر لمفاتنهن لأنهن غير مسلمات ولا محصنات، وكثير من المسلمين والأسرى الذي أطلق سراحهم تزوجوا منهن واتخذوا بلاد الروس وطناً لهم.

سهل الضابط الروسي الكبير لي الوصول سالماً لحدود تركيا، وكان قد أبلغ بقرب تقاعده، ذلك الضابط الطيب جزاه الله خيراً أرسل معي من يجيزني خطوط الخطر، بل ودعني لمسافة عشرة كيلومترات بعيداً عن القرية والمعسكر الذي كان يقيم فيه، اغرورقت عيناه بدموع سرعان ما جفت، لأنه تماسك وقال لي تمنيت أن تبقى حولنا وعندنا يا عثماني، لقد حببتنا فيك وفي الإسلام والمسلمين، ولو وافقت على زواج روسية لأقنعت إحدى بناتي من الزواج منك، هززت رأسي وأدرت وجهي صوب الغابات المظلمة والقفار البعيدة والجبال المتوالية الشاهقة والتي كان عليّ أن أقطعها حتى أتحرر من الأسر، وحتى لا تواجه عيناي وجهه.

حين قسّمت أراضي القرية كان له ستة أولاد وأربع بنات، يبدو أنه استفاد كثيراً من السنوات الست التي قضاها في الأسر، فتعلم كيف

يحافظ على صحة أطفاله ونظافتهم وتغذيتهم، فكان نصيبه من أرض القرية كبيرا بالمقارنة مع عائلات أخرى لم تكن تملك أكثر من ثلاث إلى أربعة أطفال لقلة من ينجو من الأمراض أو الموت في تلك العهود، ولندرة الأطباء والعلاج والمال،

ينسى نفسه أثناء حديثه وبحماس فيتحدث لنا باللغة التركية أو باللغة الروسية بطلاقة وقوة، ويقول عنهما أنهما لغة فحل فيهما القوة والرجولة، وقد تجيد التعبير عما في نفسك بهما أو بأحدهما أفضل مما لو أردت ذلك بالعربية، كان معجباً جداً بالجيش العثماني وبشجاعة الأتراك، لكنه كان معجباً أكثر بحسن تنظيم الروس ولطف معشرهم، ولا ينسى أن يذكر لنا أسماء الأشخاص الذين تعرف عليهم أثناء خدمته في الجيش أو أثناء الأسر في دول الحدود مع روسيا مثل أرمينيا وأذربيجان، أما حين تسأله كيف هزم الأتراك في بلاد الشام؟ فإنك تستفزه بهذا السؤال، ويسارع بالإجابة بأن جيش الترك لا ينهزم، وكل من كان مؤمنا لا ينهزم، لكن الجهل والمؤامرات والتعصب هي الأسباب التي جعلت الأتراك ينسحبون من بلاد العرب ليتركوها لأصحابها وبعد أن أدركوا أن العرب بدأوا يتفرقون وينقسمون، ويتعاونون مع دول كافرة كثيرة. كنا لا نخاف الموت ولا نرهب معدات الإنجليز الحديثة نهاجمهم ونقطع الطرق عليهم، ونفشل الكثير من خططهم، لكن وجود الكثيرين من العرب معهم كان يضيع علينا فرص الإيقاع بهم أو إبادتهم، فإما أن يبلغونهم عن حصوننا وخططنا، كان جنودهم وضباطهم الأقل رتبة مني يشكون بنا وبإخلاصنا لأننا عرب، يتجمعون مع بعضهم ولا يصادقون أي رجل عربي في الحاميات التركية .

لم يضيع أبو رشيد وقته عبثا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وبعد أن تم تقسيم أراضي القرية على سكانها، بدأ يعمل مع أولاده ليل نهار، وأولاده يطيعونه ويسمعون كلامه حتى ولو قسا عليهم، بل يتعاون الأولاد والبنات والزوجات في العمل في كثرة الزرع وفي جني المحصول الكبير كل عام، ازدادت النقود بين يديه فصار يشتري أرض أي عائلة أو فرد في القرية وبالسعر الذي يطلبونه.

لو لم تصدر الأوامر للترك بالهرب ومغادرة فلسطين لما استطاعت كل قوات بريطانيا الكافرة احتلال أي جزء من بلادنا، لأن الترك ونحن معهم أناس مؤمنون ومستعدون للموت في سبيل الله دفاعا عن الأرض المقدسة وعن حمى الإسلام والشرف والدين، لكن بعض العرب الذين ناصروا الإنجليز وصدقوهم أضروا كثيراً بالمسلمين.

حفر بئرين خاصين لخزن الزيت الكثير الذي كان يجنيه من أشجاره كل عام بعد موسم القطاف، وبئرا ضخمة لملئة بماء المطر، وكان يسمح لكل من تجف ماء بئره بأن يحصل على الماء للشرب من بئرهم في ساحة دارهم الكبيرة كالسراي في أطراف القرية ومجانا .

وكثيراً ما كان يقول للشيخ الذي يعلم أولاد القرية:

– هؤلاء أولادي أمانة عندك يا شيخ ، وبرغم كبر بعضهم في السن، إلا أنهم يجب عليهم أن يتعلموا القراءة والكتابة والقرآن والحساب رغم أنوفهم، ،فإذا خالفك أحدهم فعليك بالقسوة عليهم، وإن لم تستطع فما عليك ألا أن تخبرني عن ذلك.

لم يكن بخيلاً على معلم أولاده، يرسل له البيض والخبز واللحم المطبوخ واللبن والدجاج والزيتون، وأحيانا ببعض النقود مع أحد أبنائه،

يزداد علم أولاده بالقراءة والكتابة، وتزداد أراضيه وتتسع أملاكه ، تمتد في أطراف القرية على حساب الآخرين من الكسالى والضعفاء والفقراء الذين يهملون أراضيهم ولا يقومون بخدمتها للاستفادة المجدية منها ، ومع ذلك كان الناس لا يحسدونه، ولا يغيظهم توسعه ذلك، لعلمهم بقدرته وهمته ونشاطه الذي لا يستطيع أحد منهم فعل مثله.

قال أحدهم: إنه يستأهل، فهو رجل يخاف الله، ويد الله مع المؤمنين، فأولاده لا يعصون له كلمة، وأصبح يملك ما يقارب من نصف أملاك القرية دون أن يغير نمط حياته ولا تواضعه، حتى أنه حافظ على لبس عمامته العثمانية الكبيرة، وكان يسافر إلى القدس أو إلى نابلس بحثا عن القماش المطلوب لها أو يوصي أي مسافر إلى دمشق ليحضر له لوازم «غباينيته» كما كانت تسمى حتى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، عيناه قويتان ناصعتان نفاذتان، إذا نظر إليك أوقعك في حيرة سائلا نفسك عما يقصد بنظراته تلك، وإن لم يخبرك عما في نفسه تعترك في نفسك التخمينات والتساؤلات عما أراد قوله أو ملاحظته. أكثر من كان يفرح بلقائه الأطفال، يلقاهم ببشاشة وضحكات مسموعة ويمازجهم أحيانا، يبدؤهم بالسلام ، ويحني ظهره الطويلة ليسلم عليهم، يهز أيديهم أو يسحب يد الطفل ليقبلها، يمد يده إلى جيبه أو إلى حزامه التركي المزخرف العريض ويخرج منه حبة حلوى أو قطعة نقدية صغيرة القيمة .

لم يكن شديد الكرم، ولا معروفا بكثرة أصدقائه، أما إن احتاجه أحد مضطر في القرية لسبب وجيه، فلا يخيّب أمل سائله.

كان الوقت ظهرا حين زرته في ذلك اليوم، أصر على تناول طعام الغداء المتأخر معه ومع أولاده الثلاثة، وربما كان يقصد أن يعلم أولاده طباعه وأسلوبه في حسن التصرف وكيفية معاملة الناس، طلبت منه قبلها سلفة بعشرين جنيهاً إنجليزيا عام ١٩٤٦. فأجابني قائلا

- دعنا نتغدى أولا ثم نسمع لك .

بقيت قلقا طول الوقت طوال الساعة التالية، وكل فكرى في عروسي التي تنتظر مني أن أكمل مراسم الزواج ومتطلباته، كنت أعد الأيام بالساعات منتظرا ذلك اليوم الذي أزف فيه إلى عروسي لنصبح أحرارا ولو في غرفة صغيرة ثم متى أحتضنها، وأضمها إلى صدري نتبادل القبلات والتنهدات. ولما أحسست أنني تأخرت بعد أن شربنا الشاي اللذيذ عندهم بعد طعام الغداء صلينا العصر، بدأت بالتململ وكادت أن تخرج من فمي رغبتي في العودة إلى البيت، لكن أبا رشاد استدرك قبل أن أقول شيئا،

-عد إلى أهلك وسلم على والدك، وأبلغه أن أحد تلاميذه من أبنائنا سيزوره هذه الليلة أو غدا والاتكال على الله .

لم أفهم قصده تماما، هل كلماته المختصرة تلك تعني استجابة أم تهربا أم تحضيرا لاعتذار، عدت وأنا أضرب أخماساً في أسداس، لا أدري ماذا أقول لوالدتي التي شجعتني على تلك الزيارة. نسيت أن أذكر أن أمي قالت لي أن أعرض علي أبي رشيد مصاغا لأمي ضمانا ورهينة لسداد السلفة حين يتحصل المبلغ لنا، لكنه منعني أن أكمل قولي ذلك، وضع يده على فمي، استسمحني لأنه فعل ذلك ورجاني أن لا أكمل تلك الجملة قائلا : إننا لم نصل إلى تلك المرحلة بعد، كنت لا أنوي

العودة للبيت، لأنه لم يكن لدي جواب أقوله لوالدتي التي كانت متحمسة جداً لتزويجي، والفرح بي قبل مرضها أو شيخوختها، لكن الظلام عم القرية ليلتها لعدم وجود قمر في السماء، وكانت أنوار البيوت كابية وضعيفة جداً، ولم تصلنا الكهرباء أيامها، نعتمد على سرج الزيت أو الكاز، ومع أذان العشاء في تلك الليلة كنت أعد نفسي للنوم، نسمع باب البيت الخارجي يقرع قرعا خفيفا، أطلّت شقيقتي الكبرى، فعادت تقول لوالدي: أن الحج أبا رشيد يقف بالباب ويستأذن بالدخول للسلام عليك يا والدي.

وما أن أراح جلسته حتى رمى بحزمة العشرين جنيها بين يدي والدي، ألحّ عليه والدي بأن يكتب له صكا بالدين، قام وغادر المنزل قائلا: متى سيتم زفاف ابنكم؟

فأسرعت بإجابته قائلاً، بعد أسبوعين، وحين ودعته لباب بيتنا كان اثنان من أولاده ينتظرانه في الساحة الصغيرة أمام بيتنا الذي أحبه كثيراً. وبعد زيارة الحاج أبي رشيد لمنزلنا بأسبوعين كان جميل يمتطي حصاناً جميلاً مطهماً، يزفه جميع أهل القرية رجالا ونساء شيباً وشبانا، كان العريس جميل يشاهد أبا رشيد يعقد يديه خلف ظهره، يسير وسط كبار السن من رجال القرية، يرتدي حلة جديدة، وعمامة تركية جديدة زاهية ، يضاحك ويمازح كل من حوله، وكأنه يزف واحداً من أبنائه.

إبريل نيسان ٢٠٠١

آيسكريم وتمر
ICECREAM AND DATES

يستمع محمود إلي ضربات أصابع حفيدته على البيانو، تتمرن على إعادة أداء الدرس الموسيقي الذي تعلمته يومها، ذكريات تتوارد إلي ذهن محمود وهو يستمع إلى ضبطها اللحن تارة، واللجاج فيه أحياناً، تفاصيل دقيقة خالدة لا تنمحي، لا يدري كيف عادت له، يتطور اللحن الذي تعزفه حفيدته ياسمين ويتصل بمقطوعة (هابي بيرث دي تو يو.. سنة حلوة يا جميل). تؤشر والدتها أي ابنتي متباهية معتزة بابنتها، لا بل يزداد نشاطها بالعمل في مطبخها غير الواسع، ويبدو رضا على وجهها وسعادة، منشرحة لا تستطيع أن تخفي بسمة، تحرك رأسها للأعلى وللأسفل بخفة سارحة الفكر وإعجاباً بأداء ياسمين، يعود محمود لوعيه ولحاضره، غربة فرضت عليه، ليست غربة لفقر أو شقاء، مطبوع على حب الأسفار والتجديد والاكتشاف، حملته الأسفار والطائرات والمغامرات إلى كل مكان في العالم، وفي الشهور الأخيرة يجد نفسه بين ذريته وأحفاده في أمريكا، التي أصبحت وطنا أصيلاً وثابتاً لهم. تستمر ابنته في تشجيع ياسمين على مواصلة العزف ثم تسألك:

- هل تشرب شيئا من العصير الطازج أو الكولا يا أبي؟ ثم أي ساعة تريد تناول طعام الغداء هذا اليوم؟.. غداؤهم هناك بين الرابعة والثامنة مساء كما جرت العادة، وحسب عودة الوالدين في ذلك اليوم للمنزل، ثم تواصل كلامها

- عليّ أن أعود إلى العمل في تمام الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر هذا اليوم، وتجهيز الغداء يحتاج إلى نصف ساعة، ويلزمني نصف ساعة للراحة بعد الغداء، والطريق إلى العمل تحتاج حوالي نصف الساعة، إذاً فلا بد أن يكون وقت الغداء بين الثالثة والثالثة والنصف هذا اليوم. يرفع أحد الأطفال صوت التلفاز الذي يبث حلقة من مسلسل (زينة)، المرأة الأمريكية متدفقة الجسم المكتمل، طويلة ذات شهامة وقوة وعضلات، تفتك بالرجال أو تفتنهم، بكل تلك الخصال الجميلة يكملها صدر مكوّر نافر، لاتملّ من تأمله، لا يستره إلا شريط رفيع من الجلد يغطي الحلمتين وجزءاً كبيراً من اللون الداكن حولهما، ويستر بعض أسفلها تنورة جلدية قصيرة تبدي فخذيها الفاتنتين المدورتين المصقولتين، مخلوق أنثى من غابة برية ذات خصب مترعة بالغذاء والهواء النقي، خارج التاريخ والجغرافيا، أو من عالم آخر لا نعرفه إلا في أمريكا.

تفوح رائحة البصل أثناء قليه شهياً، فتتوقف ياسمين عن العزف، يتلوها انبعاث نكهة اللحم الطازج، تقول في نفسك "الله الله اللحم، نحن أهل اللحم، مرحباً بهذه النكهة، شكر ابنته على جهودها، وإصرارها على متابعة دراسة ابنتها في مدارس خاصة ومعاهد موسيقى عالية الكلفة، ثم ترفع صوتك تخاطب ابنتك

- أحب طعامك الطازج، تسمع ابنتها حفيدتك الثانية نهاد ما قلته لوالدتها، تسألك بالإنجليزية عما قلت، لأنها لا تفهم العربية، تجيبها أنك تذكرت شيئاً مهما، تنظر نهاد لك بما ينم على عدم تصديقها، فتسأل والدتها بالإنجليزية

– ماذا يقول جدي يا أمي؟ تشاهد سنجابين متلاحقين يصعدان شجرة بلوط عالية الأغصان، كأنهما طيران. لم تقو عيناك على متابعتهما حيث اختفت معالمهما بين الأغصان الكثيفة.

– يقول أننا سنأكل البيتزا في المطعم غداً حتى لا ننشغل بتجهيز الطعام في المنزل يا نهاد. تتوقف ياسمين عن العزف وتقول

– أفضل طعامك يا أمي، فتتصدى شقيقتها نهاد والتي تصغرها

– نريد أن نأكل بيتزا مع جدّو محمود غداً يا نهاد؟ أريد بيتزا مع البيف والفطر وسأضع عليها الكثير من الجبن المبشور والزيتون الأسود.

اشتريت أنت ورفيقك يوسف ما يقارب العشرين حبة تمر بما يعادل عشر سنتات أو خمسة فلوس، تعودان لتأكلاها في غرفتكما القبو تحت درج العمارة الصغيرة مع الخبز الجاف لوجبة غداء في يوم بارد، في رام الله أيام كنتما طلاباً عام ١٩٥٢، يدخل الزوج الشره زوج ابنتك متفتح الأنفاس، لا يستطيع الصبر حتى يجهز الطبخ، يغرز الشوكة في قطعتي لحم من بيف تكساس ويبتلعهما دون انتظار أن تبردا، تمتد يده بعد ذلك إلى الثلاجة فيخرج علبة آيسكريم يتلهى بكيلو غرام كامل من الآيس كريم ومن العلبة مباشرة، ريثما تنتهي زوجته من الطبخ أمريكي من أبوين عربين ، ولد في أمريكا. اهتزت أغصان كثيرة على الشجرتين المقابلتين، الجدار المواجه كله من الزجاج، ترى الغابة الصغيرة أمامك على أوسع مدى، لكن نظراتك تقصر عن متابعة التفاصيل بين الأغصان، لا بد من إجراء ما كما قال لك طبيب العيون، الغلوكوما والعدسات، أولويات أخرى تشغلك عن إنفاق مبالغ كبيرة على عينيك،

ما دمت تستطيع قيادة السيارة والقراءة بنظارة أو بدون نظارة ولو بصعوبة نوعا ما.

شره وسريع الهضم أبو ياسمين، لا يشكو تخمة من أي طعام، ويأكل بكثرة وتكراراً كل يوم، لا تصدق عينك ما ترى، تعود بالذكرى إلى صديقك يوسف، فتتذكر ماقلته له يومها حين عدتما لغريفتكما: "سوّد الله وجهك يا يوسف، أتسمي هذا تمراً؟ إنه حصى براكين فكيف سنمضغه؟ وهل سنقدر على ابتلاعه؟ كله وحدك إن كانت أسنانك سنجابية، أو تدفأ به إن استطعت أن تهضمه" فأسرع قائلاً: لا تقلق يا شاطر، ألا تذكر أن والدتك أرسلت لنا قليلاً من زيت الزيتون قبل أيام؟

سرعان ما بدأت طاولة السفرة تزدان بالأطباق، تتنعّم بمرأى الطعام الصحي أمامك، خضار متنوعة، رز سريع التجهيز دون زيوت ولا كولسترول، لحم دجاج أبيض، مقبلات وعصير فواكه طازجة، ثم حاوية كبيرة عميقة تحتوي على سلطة خضار مشكلة طازجة، وعلبة بها مكعبات ثلج لمن أراد أن يزيد من برودة عصيره أو المياه الغازية المتوفرة على أكثر من شكل وطعم.

يضحك يوسف من سذاجتك، يقول لك دع هذا الأمر لي، وستأكل أصابعك معه حين أجهزه وتشعر بالجوع، تهبّ نسمة هواء باردة وأنتما تقفان باب الدكان الذي وزن التمر لكما، تلملم أطراف معطفك القديم بأصابع يديك المتجمدة، انقطعت زران منه وبقي الثالث متراخياً، تخشى أن يتبع رفاقه هو الآخر، تتمنى كأسا حارة من الشاي شديد الحلاوة لحظتها مع قطعة خبز ولو يابسة، أسنانك قوية وسليمة أيامها، فلاح

اعتاد على أكل والدته من اللبن والجبن والحليب والبيض البلدي، تقول أم ياسمين بصوت مرتفع

- هيا إلى الطعام.

ينتش زوج ابنتك نصف دجاجة من القدر، يضيف فوقها كومة من الرز، بجانب كومة كبرى من الخضار فوق طبق كبير، ثم نصف قارورة من سائل الفلفل الأحمر، ينعزل بعيداً على طاولة عالية خاصة يحب الجلوس حولها، يأكل بلا توقف، غمغم أنه ميت من الجوع.

يحمي يوسف قليلا من زيت الزيتون على موقد الكاز، يضع التمر الجاف فيه، ثم يغطيه لدقيقتين أو أكثر، يغرف بالملعقة سبع حبات يدفنها في رغيف حتى لا تبرد، ويبدأ بالمضع والبلع، يقول لك هيا تفضل وأطعم نفسك، وطلقات بذور التمر تندفع بقوة متلاحقة من فمه، لا يحدث أحدا، يستيقظ غول الجوع جواك وقرص البرد، تفعل كما فعل يوسف وكأنك أخرجت من بئر عميقة مظلمة باردة لحظتها، تمتد يدك لإبريق الماء تحاول تبريد حرارة التمر وحلاوته، لكن الماء عادت لتلسعك ببرودتها، لسانك كان قد اكتوى بحرارة التمر المقلي، فخففت جرعة الماء الباردة من حرقته، وأصبح ما ملأت به فمك قابلاً للبلع بل سهلاً، وينقطع كلامك أنت الآخر في ذلك الوقت البعيد مستمتعاً بما تحصل عليه من طعام حلو دافئ في يوم بارد، وبعد قليل تقول لابنتك ربة البيت، هل لديكم علاج يساعد على الهضم؟ يبدو أنني أكثرت من أكلكم يا ابنتي، لمحتها تنظر بطرف عينها إلى زوجها، تتفقد أكداس الطعام التي تلاشت من أمامه قبل ذلك، ازدادت ظلمة السماء، وتلبدت الغيوم، حاولت تأمل أشجار غابة البلوط حول بيت ابنتك، فلم تر إلا

اختلاطها بالضباب المنخفض والغيوم، انحدرت عيناك صوب العشب، فلاحظت عليه الخشوع والانكماش من البرد، تمنيت أن تأكل شيئاً حلواً يدفئك، لكن برودة العصير والثلج الذي خالطه زاد من إحساسك بالتخمة، كرهت التمر، وحتى لو وضع أمامك فلن تمسه بسوء، تقول ابنتك لا تنس تناول حبة تفاح أوموز أو برتقال يا أبي، فأجبتها، أتمنى لو أستطيع المشي لدقائق قليلة ولو عشراً، أو لو كنت في عمان، لخرجت لحديقتي أتفقد أشجارها، تسألني ابنتي أم ياسمين، ما رأيك في مغرفتي آيسكريم يا والدي، إنه يساعد على الهضم، لدينا أشكال كثيرة منه، قالت نهاد، أريده بالشوكولاته، وأما الموسيقار ياسمين فقالت أنا أحبه مشكلاً لكن بعد ساعة من انتهاء الطعام، فأجبت ام ياسمين، سأشرب فنجان قهوة ماكسويل ثقيل مع الآيسكريم حيث سأشارك ياسمين رغبتها، أبو ياسمين يلازم التلفاز، في عالم آخر، يتابع برامج المجرمين والمدمنين والهاربين وكيف يتم السيطرة عليهم أو الإيقاع بهم للإمساك بهم من قبل الشرطة، لا يسمع ولا يدري بما يدور في البيت من حوار.

أمريكا في ٢٠٠٠/٨/٧

فراشة
BUTTERFLY

أضنته الفراشات، تبعها إلى كل مكان، إن نزلت إلى المنحدر الخطر نزل، وإذا اقتربت من وجه الأرض قفز مبهوراً وواسعاً كأنما له جناحان سعياً لها، حتى وفوق الصخور الوعرة ظل يتبعها في طيش، فراشات مختلفة الألوان تحوم في كل مكان، الدبابير تئز وتبحث عن حشرات تضمها لبطونها المنتفخة، والزهور تجذب الفراشات، وتتناغم مع جميع أنواع الحشرات المنطلقة، أرضنا غير مستوية، مرتفعات ومنخفضات، صخور ومواقع ترابية وكلسية وبعضها فيها كهوف، وأشجاربرية وثمار، بكر لم تعبث بها يد آدمية غريبة بعد، قد تهذبها وتضبط نموها ومواقعها، أو تظل محطاً للفراشات البرية، يمد يديه نحوها، عله يتلمسها أو يمسك بطرف منها، محركا أصابعه معارضاً هبوب الريح العصبية، يتعثر مرات ومرات، يئن في كل مرة يسقط بها، لكنه حين يتذكر طول معاناته، سرعان ما ينهض كاتماً آهاته والمواجع، سال دم قرب ركبته ونزل حاراً على ربلة ساقه، نسي حتى أن يمسحه، أو انه لم يجد لديه فرصة لتأمل ذاك الدفء اللذيذ السائل على سطح ساقه، يريد أن يتأمل جمال الكسوة على الفراشة وألوانها، لا شك أنه سيتجمد أمام بريق عينيها، ليست المرة الأولى التي يسقط بها ويصاب بجرح دام، أصابته الكثير من الأضرار والآلام من قبل، لم يتوقف عن جلب المتاعب لنفسه والآلام،

شاهدها للمرة الأولى في مهدها، حين كانت دودة وعليها زغب العجز، لم تكن قادرة حتى على الزحف، فكيف بالطيران، أحبها من يومها، وتعلق بها، قال لأمه مرات ومرات أحب البقاء قربها أو حولها، أصابعه تحاول تنبيهها وتحريكها ومداعبتها، كلما أتيح له الاقتراب منها، لكن مكانها ضيق، وشبه مظلم، لا يستطيع النفاذ إليه ولا الاقتراب منها كثيراً، ثم إنها كانت تجفل وتنكمش أو تتلوى كلما داعبها أو حاول الاقتراب منها.

يقضي أوقاته في الأيام الأخيرة كلها ركض ولهاث، ويضطر لاجتياز عوالم متنوعة ومخيفة بل وخطيرة، لا يفكر ولو أحياناً أن مجهوداته قد تذهب سدى، وكلما هدأ هيجانه، سرعان ما يجد نفسه متورطاً ولاهثاً، ملبياً ما يدور في رأسه من أفكار، فيجدّ في البحث عن فراشته، برية جميلة مشاغبة، كثيرة العبث واللعب والحركة، لا تهدأ ولا تستقر على زهرة أو غصن ولا في بيتها، ظل يركض ويقفز ويلاحقها، كاد يفقد حياته أكثر من مرة أثناء ألعابه الخطرة.

شاهدها وهي تنطلق قبل مدة من شرنقتها، ساحرة ألوانها وحركاتها ومحيرة، رشيقة وجناحاها مفرودتان، تمكن الاقتراب منها، أخرج منديله من جيبه فرده ولوح به، ضربه في الهواء بقوة، حوصرت الفراشة الفاتنة مع ثنيات المنديل وطياته، داخت من رائحته، ألقى بجسده على الأرض حيث هوت، وكاد يدوخ هو الآخر، يريد أن يهدهدها، حتى لا يتناثر زغبها، ليس المهم هو الوصول لها، فكر في نفسه، لكن ما أصبح يقلقه هو كيفية الحفاظ على سلامتها وكمال بهائها، حاول أن تبقى حواسها سليمة وجمالها مزدهراً وبكامل حركاتها الطبيعية،

سيداعبها ويقترب بأنفاسه من رأسها وأنفها، وحين تطمئن له، سارع إلى علبته الكبيرة، كي يودعها بها، ولن ينسى أن يدثرها حتى تستريح، لكن دبوراً كبيراً هوى عليها، اختطف حبيته وطار معها بعيداً عن الأنظار.

اتسعت حدقتا عينيه وتجمدتا في محجريهما، شهق وتجمد في مكانه، شفتاه ارتجفتا، ولا بد أن حلقه ابتلع كلماته وأخفاها، حملوه هو الآخر إلى مكان لا يراه فيه أحد.

١٩٩٧

رحلة طويلة[٣]

LONG JOURNEY

اليوم عيد! مضى عليه مائتان وواحد وأربعون يوما في بلاد الأنكل سام، وهاهو اليوم يحاول تأمل حاضره مع الناس الذين حوله، ومراجعة ماضيه. ثمّ ماذا يعني عيد الأضحى بالنسبة له هناك؟

قال في نفسه، إذا لم تكن أنت نفسك مقتنعاً بما تفعل، فكيف تتوقع الآخرين أن يقتنعوا بك أو بما تقدمه لهم؟ الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحا، صحا متأخرا هذا اليوم، يصحو مبكرا في العادة، لكنه تقلب في الفراش طويلاً قبل مغادرته، يفكر في الأمور التى تجعله يغالب المرور البطيء للزمن، يعاتب نفسه ثانية حين استيقظ في السابعة صباحاً "يا ألهي! سهرت حتى الثالثة صباحا لكي أنام طويلا وبعمق، وحتى أصحو متأخراً كي يكون أغلب النهار قد مرّ، ظل يتقلب في الفراش، نظر الوقت، ما زالت الساعة العاشرة صباحا، والشمس تغيب قرب الثامنة مساء، معنى ذلك عشر ساعات على الأقل بقيت على عودة الليل ثانية... لو كان الأمر يوما أو يومين، أو حتى شهراً أو شهرين لهان الأمر، إنه كمتهم واقع في مكيدة قانونية خطيرة، يفتقد أدلة البراءة، عليه أن يبقى قابعاً في الحجز ودون محاكمة، فلا هو عارف أنه بريء ولا هو محكوم عليه ليعرف مدة الحكم بحبسه، وليس

---

٣ . نشرت هذه القصة في المجلة الثقافية للجامعة الأردنية الفصلية في العدد رقم ٤٦ للفترة من كانون الأول ديسمبر ١٩٩٨ – آذار عام ١٩٩٩، أجري عليها تعديل بسيط لاحق كما هي حالها هنا

ذلك فقط، بل كيف سيقضي فترة الحكم بالسجن؟

ما علينا، قال لنفسه ثانية وثالثة، المهم أنه يريد أن يفكر كيف يقضي الوقت هذا اليوم حتى لا يحس الملل المهين مثل كل يوم. يصادف اليوم الأول لعيد الأضحى هنا في بلاد العم سام.!، "ماالذي يجب أن أفعله؟ لسنا في بيئة عربية نفعل كما هي العادة، يبدأ الرجل بزيارة بناته وأخواته ومن ينطبق عليهم صلة الرحم، ثم زيارة الكبار والمرضى من الأهل، فماذا علينا أن نفعل هاهنا؟"، لم يسمع أن أحدا من أنسبائه أخذ إجازة بمناسبة العيد، ولا عطلت امرأة أياً من أولادها عن المدرسة، اتصل ببعضهم قبل قليل، فعرف أن الجميع مشغولون، وغير متواجدين في بيوتهم.

فراغ يشبه المتاهة وأسئلة كبيرة محيرة! تحس بضيق نفس، أو لنقل هو اختناق، وأنت في مثل هذا الأتساع؟ وماذا لو كنت في بلدة عربية؟ ستفكر في أمور كثيرة منغصة، لكنك لست وحدك، إنه كل من عرفت في أي قرية أو مدينة، ربما كانت شكوى الريفي أقل حدة، بل شكاواه ذات طبيعة مختلفة، فيها قناعة ومحددة، لكنه الطموح أوالطمع أو الشكاوى بين أهل المدينة العربية، لا يسألون عن موسم الزيتون أو حصيلة القمح أو حليب البقرة كما هي حياة الفلاح، بل تفاصيل متطلبات العصر، يتوه بها العدّ ومن ضمنها تعدد أشكال الطعام وصنوفه، واللباس والفواتير الكثيرةوالأمانوالتحرروالاستثمار،والأحلام الواسعة بالأيام (الجميلة) التى تتوقع أن تقضيها في سنوات تقاعدك، وقبل موتك، فهل ستجد ما برأسك كما يروق لك؟ أو هل تملك أن ترى كل ما حولك بوضوح؟...

تنفذ خيوط نحيفة ضعيفة من أشعة الشمس من بين الشقوق التي في الستارة البلاستيكية المدلاّة على النافذة في غرفتك، أمور الحياة هنا متشابكة متلاحمة مثل ستارة غرفة نومك، الشرائح مرتبة ترتيبا دقيقا ومترابطة بخيوط لا تعلم قوتها من ضعفها، إن انقطع أحد الخيوط انفرطت كلها أو قلت جدواها، وما دام هناك أشعة شمس تستطيع النفاذ لغرفتك فقد صدق المتنبئ الجوي، قالوا ليلة الأمس أن الجو سيكون مشمسا ودافئا، ثم أضافوا، هنيئا لكم شمس نيسان اوالربيع والزهور، تمتعوا واملأوا صدوركم بالهواء المنعش، و متعوا أنظاركم بمرأى الطيور والورود البرية، تنمو في كل مكان حولكم، بدلو ملابسكم واكشفوا الكثير من أبدانكم، وعرضوها للشمس وللأنسام الهادئة، تنشقوا الهواء العليل، أملأوا صدوركم به، وسيحوا وتنعموا في الأرض!، استمتعوا بجمال أجسادكم وبكل ما في الطبيعة من تناغم.

لم تتناول طعام الإفطار كالعادة يوم أمس، فكافأتك ربة البيت بغداء فخم، ساهمتَ في العمل وساعدت، بل قمت أنت بإنضاج اللحم المشويّ على الفحم، كنت تحب مثل هذه الأمور في صباك، بل كنت المحترف والمشهود لك،

"هل تذكر حين كنت تعزل قطعة لحم كبيرة سميكة من لحم البقر في تكساس، كنت بكامل قواك الجسدية ونضجك، تختارها من محل الجزار ولو غلا ثمنها، لاتصدق نفسك الان! لم تكن لتقل عن الكيلوغرام في وزنها، قطعة واحدة بهذا الوزن تشويها على الفحم بعد أن يكتمل اشتعاله، ويبدأ الرماد الابيض يتراكم على أعلاه، وقتها تبدأ بوضعها على النار، تقربها من وسط النار لدقائق، ثم تعود لتبعدها عن

البؤرة لدقائق أخرى، وهكذا حتى تنضج اللحم دون احتراق، تأكلها وحدك بشهية واقتدار، مع كثير من خضار، ولا تنسى إضافة بعض البهارات والصلصات الخضرية تدهنها بها بين الحين والآخر، حتى تحميها من شدة الحرارة ولتضيف نكهة جذابة ومميّزة لها".

تودّ هذه اللحظة لو تجلس في الفضاء الواسع المشرق، تخشى البرد، لا تحب البرد، ولا حتى الحرّ، تمتد يدك الى زر النور لتشعله، تتمنى أن تختطفك كهرمانة إلى تكساس أو عمان أو أي مكان، تجتاحك انتفاضة مزلزلة، مركز الزلزال في أعلى رأسك، لا تدري ماذا حصل لك، تتمنى لو تستطيع أن تطلب النجدة، أو لعل أحدا من أهل البيت يحضر ليراك، هل هي سكرات الموت، تحس بارتخاء وبرغبة في النوم والاسترخاء كأنه الدوار، تحملك أجنحة رقيقة قوية، تبعد شرائط الستارة وتنسل بك محلقة في الفضاء الرحب، أصبحت ترى وتحس ما يجري لك، إنها هي، كهرمانتك التى تمنيت، تأخذك الى مكان بعيد، يا ألهي تقترب بك من الشمس، تقول كعادتك

- أكره الشمس ياسيدتي! أرجو أن لا تكوني من طائفة عبدة الشمس، أن كان ذلك فسأكون أشد البشر كفرا بكم وبمعتقداتكم، تلسعني برفق،يد تتحسس صدري بشيء من اللهفة، لكنه كأنه المساج، ما أوسع العالم الذي أنتقل أليه، ليتني أستطيع وصفه ، طلبت مني أن لا أخاف، وحتى أمارس الحياة بشكل طبيعي علي أن أجتاز أنبوبا طويلة للتكيف والفحوصات، قلت لها أنا لآ أحب الشمس ولا الظلام ولا الدكتاتورية ولا الجوع، لم يسعفني النطق لأقول لها أنني خائف ومن صحبتها ومن الفضاء الواسع حتى لو انه جميل، تصبرت وحاولت أن

أكون صلبا وصامدا، قلت لنفسي "عانيت وتعذبت كثيرا في ما مضى من عمرك، فأضف هذه المرة للقائمة الطويلة"، تاه الزمان في رأسي والمكان، كل شيء أصبح مختلفا بالنسبة لي وبلا حدود، لا أستطيع وصفه او تصوره، أفلاك تدور ودواليب متماسكة مترابطة، مياه تتجمع وأخرى تنزل، أناس يذوبون، وآخرون يتشكلون، كنت أتوقع دماء وأمراضا، لكنني لم أر شيئا منفراً في تلك الأجواء البعيدة، حتى أن أكل الناس هناك من الهواء، في عالمي لا يذبحون حيوانات ولا طيورا ولا يقتلون بشرا، لا أعداء ولا أحكام جائرة، وإذا أختلف اثنان يتصارعان حتى يذوبا، فلا يبقى أثر لأي منهما، لا غالب ولا مغلوب، لا تدري أيهما الظالم وأيهما المظلوم، وحين استفسرت عن ذلك قالت لي الحورية بحنان، وبصوت أنثوي موسيقي مفعم بالود والهناء، كدت أدوخ ثانية، ومشكلتي أنني لم يصدف أن قابلت ملاكاً، ولا أتوقع ذلك، ولم يصدف أن سمعت عزفا ملائكيا، لكن صوتها المصحوب ببسمتها ونظرات عينيها الساحرتين يزيد من جمودي والخدران، ذكاء وأعماق ومغناطيسية تشع منهما، وحين اقتربت مني لتحادثني كالهمس، وقعت نظراتي على براءتها وصدرها وجسدها الذي انزلق عنه كل غطاء أو لباس، كنت سأسأل عن سبب ذاك العري الساحر، أوعلى الأقل فلتغط الكرتين النافرتين، قالت

- لا تقلق، دخلنا حدود عالمنا، وهكذا سترى الجميع، أخترتك أنت من دون البشر لترى عالمنا الذي تعودنا عليه، ولا نفكر بغيره بديلا أكملت حديثها الذي أحالني الى ركام بلا شكل ولا لون أو ربما بأحساس مضطرب كالمخدر، قالت

- هل ما زلت تريد الاستفسار عن تطاير الشخصين اللذين كانا متصارعين مختلفين؟

هززت رأسي بلا وعي حقيقي، والصورة تزداد غموضا في عيني، بل صرت أفقد استقرار الصور أمام ناظري، كمن يفتقد نظارتيه اللتين اعتاد عليهما، هززت راسي أطلب التوضيح فقالت

-عالمنا يعاقب المختلفين بعد أن ينهكا نفسيهما، فيزولان وينمحيان من هذا العالم الفسيح، فلا محاكمة ولا شهود ولا ظالم ولا مظلوم، هما يختلفان وهما يختصمان وهما ينتيهان.

كدت أن لا أسمع كلماتها الأخيرة، فقد أدخلت الى أنبوب الاختبار الطويل، حاولت التملص والمقاومة، لكن القرارات حازمة هناك ونهائية، وما إن أطل رأسي أذا بيد تتلمسه برفق، كدت أقابلها في الطريق بتقبيل تلك الأصابع، ولكن وجهها كان أقرب، فتحت عيني جيدا أتأمل ذلك الجمال الفاتن، وإذا بيد حفيدي تمتد بالهاتف النقال تناولني إياه طالبا مني الرد على المكالمة من عمان.

٢٠٠٣

أبو نوّارة
ABU NUWWARA

حملوا (أبو نوارة) للطبيب ليفك له فكيه، يتمنى أن يتكلم، يتحدث الناس له، يستمع لهم وينظر الى وجوههم، أديم وجهه جاف مشدود، وعظام خديه وفكيه واضحة تحت الجلد الرقيق الشفاف، يفهم ويسمع كل مايقولون، ظن الكثيرون أنه خرس وللأبد، حينما يسألونه هل يفهم ويسمع مايقولون، يهز رأسه بالإيجاب، يكاد يبتسم هازئا منهم ومن اتهاماتهم، لكن كيف يضحك وهو أضحوكة؟ يتذكر أنه ملصق الفكين كأن غراء شديداً جف عليهما مقفلين، فلا يقوى على فكهما أو حتى تحريكهما للنطق بأي كلام، يلبس ملابسه النظيفة، يضع الكوفية والعقال على راسه،

ليلة الأمس كا نت عرس شقيقته على ابن عمه، اشترى هو الآخر حذاء جديداً، يحب الذهاب إلى المدينة زائرا متباهيا بشبابه وبملابسه، لكنه هذه المرة سيزور مدينته الحبيبة رام الله طالباً الشفاء، وكل أهل القرية يعرفون شهرته في العزف على الناي البلدي. كان وحيد أمه، تزوج قبل اعوام ست ولم يرزق بولد بعد، عنده بنات ثلاث، حين مات والده احتضنته أمه، لم تقبل الزواج من أحد، وعلى الرغم كثرة العروض عليها من أقارب زوجها، لكنها أصرت على التفرغ لولدها وا بنتها لتربيتهما، لامها الجميع ولم يوافقها أحد على عزوفها عن الزواج، لكن شقيقها لم يضغط عليها ولم يحاول إقناعها والدة أبونوارة بالزواج ثانية.

كنت تقف قربه، وكان الوقت قرب الفجر، اجهشت بالبكاء حين شاهدته يبكى، وبكت أمه وزوجته، نعم ؟! وهل بقي أحد هناك لم يبك على موسيقار القرية، وقرب انتهاء سهرة الاحتفال بزواج شقيقته؟ يقف الجميع امام عتبة الدار، يبرد الجو، وتهبّ نسيمات لطيفات من جهة الغرب، في ذلك الوقت المتأخر من الليلة الصيفية الجميلة، كان الشباب والصبايا مازالوا متعرقين من كثرة الرقص والمرح في ليلة زفاف اخته، هي عادة اهل القرية، كلهم يشاركون في الفرح والترح، ونادرا ما يتأخر احد عن المشاركة أو يغيب إلا لمرض، لكن في تلك المرة، سبحان الله! تستطيع أن تقول أنه لم يبق صغير ولا كبير من ذكر او انثى من سكان القرية الصغيرة الا وكان حاضرا ليلتها، تقديراً لفن موسيقار القرية، وطيبة هذا الإنسان، وحين شاهدوه على هذه الحال، تقدم الشيوخ والسيدات العجائز لقراءة القران والادعية والأوراد عليه، حتى تنطلق فكا ذلك الأنسان الرائق هادىء الأعصاب، وازدادت تجمع النسوة حوله، ومعظم صبايا القرية يطرين شهرته في العزف على الناي، هذه تأتي بالبخور، وتلك تبسمل، واخرى تنفخ عل النار لتسرع في الاشتعال، وغيرها ترش الملح، والعجائز يزاحمن ويقتربن، يتلمسن رقبته وكتفيه وفكيه، وهو متجمد محرج، لا يقوى على الاعتراض أو أبداء أي رأي، بل كان هو نفسه مصدوماً مما هو فيه، والوقت تخطى الثانية بعد منتصف الليل، أما الصبايا والبنات فما زلن يتدافعن هن الأخريات، حتى مع تأخر الوقت ليلاً، منهن من تريد الاقتراب للتأكد مما سمعن عن خرس الرجل المفاجئ، وبعضهن يتهامسن بتعليقات لاذعة، أكد بعض الآباء بأنه مسّ من جان، احدى حوريات الجن

الشريرات او الحاسدات عشقته ولطمته على وجهه، أخرسته وأوقفته عن العزف حتى تنفرد به، قالت احدى الصبايا، "شاب جذاب، وعازف ماهر فلماذا لاتعشقه؟ كلنا نعشقه"، قالت رفيقة اخرى أكثر شيطنة "ربما رفض أن يسمح لحبيبته بتقبيله وهي تعتصر خديه بيديها، فطحنت عظامه"، تقدم عمه ناهرا الجميع بصوت مرتفع، تفرق الجمع وانفرجت الحلقة المحيطة به، أمسك بيده ثم سحبه، مشى معه طائعاً بطيئاً كأنما يجره جراً، بدا أن سيره مع عمه كان دون رضاه، مبدياً شيئاً من مقاومة، لكنه يحترم عمه، وعلى رغم انه يتيم الأب ألا انه عرف عنه احترامه للناس جميعاً.

والعادة أن يحترم الشباب والصغار كلام الكبار أيامها، بعدها لم ندر ماذا حدث ولا كيف قضوا ليلتهم، لكن احد الشباب البالغين علق ساخراً

- هو يشد على نفسه هذه الليلة وغيره يتراخى و...

وبادر غيره بإجابته دون حماس

- وماذا تريدهم ان يفعلوا، ولماذا يتزوج الناس، سواء كانوا رجالا أو نساء ؟ والليل مخزن اللذات.

كان الشرط أن يدفع العريس شاة الشباب، وعباءة الخال، وكلما اراد شقيق العروس أن يشارك في الوقوف بجانب أمه وشقيقته قبل انتقالها من كرسي الزفاف كزوجة الى بيت ابن عمه، أشغله عمه واخوان العريس ابناء عمه طالبين منه المزيد من النفخ على الناي، حتى يبقى الشباب فرحين راقصين مغنين، اقنعوه (أننا اهل فرح وعرس، ويجب أن يكون عرسنا اكثر اعراس القرية أنسا وحيوية)، اجتاز العريس

ووالده واثنان من اخوانه الزحام بين النساء، وحيث العروس مصمودة، على عرش ريفي بسيط، تقدم عم العروس، أدخل يده تحت ذراع ابنة أخيه، وامسك ابنه العريس بذراعها من الجهة الاخرى ودعياها لمرافقتهما، زغردت أم العريس وخالته واخته، اعترضت ام العروس وقالت اين اخوها ليخرجها يسندها ويمسك بيدها كعاداتنا، لم يجب عمه، لكن احد ابنائه قال: إن ابن عمي سعيد في الخارج، يعزف على الناي فرحاً ولا يريد الحضور هنا بين النساء.

يعرف أهل القرية أن عازف الناي رجل حييّ، استغل عمه تلك الصفة فيه، فنجا من دفع قيمة شاة الشباب وتكلفة عباءة الخال كما جرت العادة في تلك الأيام.

اراد اخوها التقاط انفاسه من كثرة النفخ على الناي، اقترب احد اصدقائه منه، همس في اذنه غامزاً

- ولمن تنفخ؟ أختك لم تعد بكراً، ابحث عنها ان كنت ستجدها!

- لعنك الله! ماذا تقول؟

لكن الرجل سارع في الاختفاء، والواقع انه هرب من وجه صديقه شقيق العروس، خشي أن تاخذه الحمية فيعتبره سببا فيما يدعيه، فتكون ضربة الغضب والانتقام على رأسه. تأكد انهم اخذوا أخته دون مشاركته، أخلّ عمه واولاد عمه بالاتفاق وبالعادة المتبعة، استغلوا وحدته، لا اخوان له، تذكر أبو نوارة وقتها والده المتوفى منذ امد بعيد، تمنى لوكان والده حياً، إنه يحترم عمه ويحاول اطاعته، لكنه حقد عليه ليلتها، كرهه وكره أولاد عمه لأنهم استغفلوه وقللوا من قدره أمام أهل القرية، اسرع لوالدته ليأخذ خنجره، كانت أمه تدرك انه سيفعل شيئا

مثل ذلك، لكنه وحيدها، هجمت عليه وقالت له :

– عمك ياولدي عمك! والعريس ابن عمك! نحن عائلة واحدة. لم تذهب اختك عند اناس غرباء، فلا تغضب، سنزورها غدا صباحا أن شاء الله، حاصرته الام وخالته وضمتاه، حاولتا تهدئته لكنه ظل يتفلت، أراد أن يتكلم او يقول شيئا مهددا بيده، وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما، لكنّ فمه لم ينفتح، مد يده إلى أقصى ما يمكن، فلطم وجهه بقوة، الا ان فكيه ازدادا التصاقا وتماسكا. صار يحاول الكلام وهو يجرب الانطلاق من بين يدي أمه وخالته، فهمتا رغبته بالانتقام، بالرغم من انهما لم تسمعا كلمة منه، أصيبتا بصدمة هما كذلك، فازداد اصرارهما على عدم السماح له باللحاق بأخته، ولا بالتحدث مع أبناء عمه في تلك الليلة.

١٩٧٨

أين أمه
WHERE IS MOTHER

سمعتهم أو كأنني سمعتهم يتهامسون، بل كأنني شاهدتهم يتقاطرون من كل الجهات، كانوا بأشكال وألوان مختلفة، منهم القصير ومنهم الطويل، لا تشابه بينهم إلا في البشاعة وفي أشكالهم الغريبة، لا يطيقون بعضهم بعضا، بعضهم كالإناث، وآخرون لهم رؤوس وأعين مواربة وأطراف أخطبوطية متشعبة، يقتربون لحظة ثم ما يلبث الواحد منهم ان يعود الى خط الطوق المرسوم لهم، أذناك تلتقطان أحاديث وهمهمات، لكنك كالأخرس الأبكم، لا تتكلم أوتعجز عن التعبير عما تحس به حيالهم، يتهامسون أحياناً وتصدر عن بعضهم حركات مشبوهة تارة أخرى، لماذا يحاولون الاقتراب منك؟ إنهم يتشاورون؟ كل يحمل معه أداة أو معولا غريبا، منها المستقيم ومنها المعوج و منها المجدول، وصل إلى مسامعك قول أحدهم

– بردت قدماه، أصبح بلا حراك، أريد أن أذهب لأقف عند تلك الساق المتجمدة. آخر يقول لم أعد أرى تردد أنفاسه، سأشفظ ما تبقى فيه من هواء، ساحلق به وأقوم بالأمانة خير قيام، لا يروق لي طول الانتظار، وما جدوى الانتظار؟.

ثالث يتحفز للهجوم، يتمطى ويهم أن يقفز الى وسط الدائرة حيث المنتفض يسمع ويرى..

– أماه، أحس بالبرد، إني أرتجف، كلمات متقطعة ضعيفة تصدر من مكان غير مرئي، لكن والدته نادت بلهفة على ولدها رابح، ردد رابح قائلاً، الماء، الشتاء، المطر، البرد، الانتفاض، الظلام، اطردوهم! الخوف، إني خائف.

يحاول أن يؤشر على فمه، تتململ يده اليمنى لكنها لم تغادر موقعها على الفراش بجانبه، أصابع يده اليسرى تشير صوب فمه، يريد أن ينقلب فلا يقوى على ذلك، كل ما فيه يجف لحظة بعد لحظة، ما أظلم الناس! بل ما أجهلهم! يود لو يستطيع أن ينفجر بصوت مدوٍّ متواصل لا ينقطع حتى لا تنقطع أنفاسه، تخور قواه في جسده الكتلة. وحتى قوة سمعه تخبو، تبهت الجدران في عينيه، والصورة التي عليها تصبح غامقة، يزحف ليل يخيم على عالمه، لكن أناساً من أهله ومن غير أهله يجلسون، لماذا يجلس الناس حوله؟ وقت نوم وأحلام؟ لا يطيق أن يرى ولا أن يسمع أحدا لحظتها، رابح يحب الناس والحركة حوله، يتضايق اليوم من نور، إنه نور مختلف وكاوٍ، نور خارق حارق يشل أعصابه، لا يحب شكله ولا رؤياه، يريد النوم، رابح يحب الهواء النقي والفضاءات الرحبة، يكره أشعة الشمس الكافرة.

الشمس! الشمس!... الشمس.. طلعت يا محلا نورها، شمس الشموسة، يا الله بنا نملا ونحلب لبن الجاموسة،[٤] أيتها المتمردة القوية، تفضحين الأسرار، حتى العقول تخترقين تماسكها، تقضين المضاجع، يصحو بسطوتك السكارى وينكشف العاشقون، الحب لا يحب التكشف والانكشاف، ولا الجهل والظلم؟ . . لا تتمادي أيتها الخارقة،

٤ معطع من أغنية مشهورة للفنانة الكبيرة فيروز

تذوب الدهون في أتونك والعقول، تتقلص الخيول المهزومة وتنهار تحت خيوطك، بعضهم يتنبهون على مسراك، وآخرون يهيمون على وجوههم في العراء والكهوف والاستجداء.

-هل تتكلم معنا يا ولدي؟ يبادر والده بالاعتراض على والدته قائلاً

-أسكتي يا امرأة! دعيه ولا تتحدثي معه، أنه يحلم، سنكلمه بعد أن يصحو، نرجو أن يكون في أحسن حال عند الصباح.

-ليتني أنا المتألم بدل ولدي! تقول والدتك، هل سيصحو رابح يا ترى؟

-فال الله ولا فألك أيتها المرأة، قومي من هنا، إلى إن تنور شمس الصباح عقلك، علّها تفتح طاقة في مسام فهمك.

- أبي! أمي! أيها الرفاق! انهضوا واطردوهم، أشكالهم بشعة، جملة استطاعوا أن يفهموها من همهمات رابح، ثم لم يستطيع أن يكمل، لهم مطامع ومقامع، أيتها الشمس الغاضبة لم أعد أطمئن لك، كشفتني! أضعفتني! كشفت كلّ عيوبي، وأين ذهبت بعيني؟ سأحلق! بعد قليل، جسدي، جسدي يخف قليلا قليلا ، كتلة من نار ودهان، أخفت مع خفايا ليل الصحراء ودغدغات الحشرات في ظلام صيف حار، هواء ثقيل يحملني الى الأعالي، اتركوني أحلق على حريتي، دعوني انطلق الى عالم غير عالمكم، أنتم لا تفهمون أنفسكم، ولا يغني أحد منكم شيئا، أنتم لاشيء من لاشيء، هباء تذروه رياح عفن، ادفنوا رؤوسكم. أريد أن أصبح راعي غنم، أعطوني الحرية، الغنم للذبح والموت، لكنها تتحرك بحرية في المراعي، انتم أغنام، تختلف عن أغنام العالم كلها، لا شبع

ولا نظافة ولا تنظيم، أرضنا أصبحت لا ترعى بها أغنامنا، ذاك القزم الأحمر، ساعدوني عليه، أو احموني منه، كرشه يتمدد، عيناه تكادان تبتلعانني،ألا تلحظون نظرات الحقد والتهديد في عينيه؟ خذيه عني أيتها الشمس إن كنت قوية مهابة، فتتي قواه، بعيداً عني ألقه، ليهو في مكان سحيق حتى يهمد ويرتاح ويريح، كبش جاهز للذبح، جهز سكاكينك والنطع، والحبال والكلاليب، كم أنتم ماهرون في تعميق الحفرة في باطن الأرض، وتؤذون جذور الأشجار البواسق أحياناً والراسيات، يا شمس الغدر، اغربي صوب غربهم، آه يا رأسي، صدري وأمعائي، بحق الصليب ألا تراني يا أميل؟ لا أصدق أنني على دراجتي! وأنت يا ميشيل وإفلين وسوسن، يا من حببتوني في مدينتكم رام الله، ها أنا في سمائها، أبحث عنكم فلا أرى ضحكات أي منكم والغمزات، أنا السحر!، لديّ هذه القوة الخارقة، أنا لست مجنوناً، قل هيموا في الأرض، تأملوا وتنعموا، وإلا لماذا هي سيقاننا والعيون؟ ولماذا رؤوسنا؟ ولماذا نأكل الخبز الحاف وبدون خضار ولا لحمة؟ أليس الأفضل أن ننفق ما نستطيع على ركوب الدراجة؟ ...

أحس برأسي خفيفة، أنا في بركة من شراب وتعرق وبول، رائحتي تجذب أشباح الفناء، لو وجدت أهلي يعبدون الشمس لكنت أول كافر بها، سأتصرف بقلبي وتمائمي، عليك السلام يا من تريد السلام، إذا لم أعد يا أميل فأقرئها السلام، لاتنسها، سلواى، وإفلينك، قل لسلواي أنني سأعيش محلقا في سمائها، وفوق كل جزء من هواء تسير تحته، عزيزة علي، تغنيني بسمتها عن نور الشمس في يوم بارد مطير، أتخدر وسلوى في كل عرق في بدني، أدق حتى أصبح رمشا مع كل رفة من

عينها، كل رفة أو غمزة مقصودة كانت تصرعني بها، كم مرة لعبنا كرة الطائرة؟ كانت سلوى هي التي تحضر حبل الغسيل من بيتها، وبيدها ساندويتش المربى بالزبدة، آه ما ألذه، قد أسافر الى أجواء بعيدة، كنت أتعمد أن أرمي كرة عالية لها، خبثاً بل حباً، ثدياها هما اللذان يقفزان، قل لها أنك سمعتني أغني: (على بلد المحبوب وديني - زاد وجدي والبعد كاويني).

تخرج والدة رابح عن صمتها الذي فرضه زوجها عليها، تولول وتضرب كفا بكف،

- على الله العوض، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولدي! ولدي يا أبا رابح، ما هذه الهمهمات والغمغمات التي نسمع، لا نفهم معظم ما يقول ولدنا رابح. ماذا جرى لولدنا؟ .. أنه لا يتوقف عن الثرثرة، ولدي! ولدي! ألا تحس بشيء من عطش أوجوع أو حر، أن جسدك يغلي، نضع الخرقة المبلولة على رأسك فتجف في دقائق قليلة.

يمضي الليل بطيئا بطيئا، لم يعد الشباب الذين أرسلوا الى القرية المجاورة كي يحضروا سيارة لنقل الغلام للطبيب، تحمله أول سيارة تمر في السابعة صباح اليوم التالي. بعد ساعات ثلاث من تعذيب البدن بالثلج والحقن المملوءة بالادوية يتأوه الفتى ويتقيأ، يزداد تألما. يفتح رابح عينيه، يهمس الى من حوله متسائلا

- أين رفاقي؟ أين باقي فريق كرة القدم؟ أريد أن أبلغهم بالاستعداد لمباراة الغد.

بينما كان رابح يكبر يوما بعد يوم، وعاماً بعد عام، ظل يزداد حبه للمدرسة، وحين بلغ الخامسة عشرة تابع دراسته الثانوية في المدينة. في

شهر أغسطس الحار في ذلك العام، وأثناء العطلة المدرسية الصيفية، لعب البطاح وكرة القدم مع رفاقه والمصارعة الحرة على بيادر القرية، لم يفكر أحد من الرفاق بتناول جرعة من الماء، لم نكن نعرف سائلا آخر نشربه إلا الماء حين العطش، أو الشاي إن استطعنا الحصول عليه. آخر ما يذكره رابح أنه قال: أحس بدوخة وبرغبة في التقيؤ.

– لا نريدك أن تلعب كرة القدم بعد اليوم! حتى الذين يلعبونها باحتراف لا يفعلون ذلك في أيام الحر الشديد، كنت مصابا بالانفلونزا ثم أتتك ضربة شمس، قال الطبيب

– حظ هذا الغلام قوي، كان ميتاً ثم نجا من الموت، أسقوه ماء كلما استطعتم، سنوالي الاهتمام به على مدى الأيام الثلاثة التالية.

في الطائرة إلى هونج كونج عام ١٩٨١

يونس يمشي هادئاً
YOUNIS WALKS CALMLY

برز يونس كفارس وهو يزأر

- أغرقوني في البحر إن اسطعتم، سأبقر بطن حوت حتى لو ابتلعني، سأسبح خارجاً تحت ماء البحر وفوقها ومع الأمواج، لأستقرّ على تلك الرمال الرخوة عميقة الأغوار، أعشته الشمس، كشفت ضعفه وعيبه، ثم أكمل غاضباً مزمجراً، سأحمل نفس علبة الصفيح الكبيرة، وسأسد جميع الخروق التي بها، وأباشر في نقل ماء البحر الهادرة الى أرض القوة والحياة، يشعروننني بالضعف لحظة بعد لحظة، ما هذا الذي يهد كياني؟ ..

المعتوه يرفع عقيرته هاذيا دون أن يلتفت لأحد، و دونما اكتراث كأنه الوحيد على ذاك المنبسط: أنا ابن الرمل، برتقالي يافاوي، السمك غذائي وملح البحر حياتي، اضطجعي أيتها الأغنام وتبسطي، حلقي يا نوارس مع الغيم ، إفردي جدائلك يا عشتار على العوجا وسهول روبين، أهلي يتسلقون الجبال العالية، أنا حامي البحر، وسيد المجانين قربه، وبنات عشتار وحفيداتها يحطن بي، وإذا تراجع الغرس والنسل، نزلن الى الشواطئ يرقبن الأمواج القادمة من بعد، يفتحن أذرعهن فيعلو الحليب النقي الطاهر على حواف الموج، فتمتاحه أصداف البحر بشغف وأسماكه، وتبرز من بين تلال الأمواج حلمات تنبض مع ارتعاشات البحر، والشعور ترف وترفل على جبهة الماء، ينزل الليل الى

الماء ليبترد، ورمال الشاطئ تتعجل عودة حرارة الأجساد اللاهثة إليها، تترصد بتضاريس العهر المجلوبة.

قال لنا معلم التاريخ العجوز، إنه لم يكن يخشى غضب الإنجليز حين يخاطبهم قائلاً

– على روائح الأرض وشواطئ فلسطين توالد أجدادنا وتكاثروا، وهم يعملون من أجل البقاء، ولحفظ رمال شواطئنا بسطاً نقية لأجسادنا. نظر من نافذة المدرسة عبر الزجاج المكسور، حلقت يمامة كانت تدفئ صغارها، ناحت وهدلت، قال المعلم، رحم الله الشاعر الذي قال، حين شدا مع مطوقته، ناحت مطوّقة بباب الطاق. . . وجدتي قالت

– اصطاد أجدادكم أغذيتهم من أعماق البحار العميقة بعرق وأرواح، قدسوا الشعور المفلوتة، واحتضنت أذرعهم أحلام الليالي وآهاتها، فالتهموا الكثير من الأسماك التي كانت تجرؤ على الاقتراب من شواطئ مياهنا، غرسوا أقدامهم في التراب السحيق، وامتدت أصابع تلك الأقدام الى جذور البرتقال والجوز والجميّز والخروب والسريس، لهثوا وتنفسوا بقوة ونشاط، تضوعت روائح الليمون مع تلك الأنفاس العطرة، بكى حفيدها من جوع أو ألم في بطنه، هدهدته ثم سرعان ما عادت إلى ذكرياتها، ازدحم الأطفال في أحضان الجدات، وعلوا أكتاف الحفيدات، والفتيان، استهانوا بقمم الجبال الباسقات حتى يرفعوا بيارقهم، ظلّ البحر عبدا لهم، والأمواج الضاجة تغسل أقدام الجبال وتبرّد السهول والصدور الناتئة تحت الثياب المطرزة.

أكمل يونس حارس رمال الشاطئ المعتوه نداءاته

– أوقفوها، نار تحرق أحشائي، رأسي لم تعد تحتمل تراكم العلل وثقلها، أطلقوني! كي أذهب الى بئر الحقل، ستغسل حبيبتي عطاف رأسي بالماء المبرد، آه يا رأسي الضعيفة المضطربة ..)، مسح يونس دمعة عن خده، سمع أحدهم يقول

– يونس يلهث تعباً.

– كلا، كلا.. يونس لا يتعب، يونس يجري قلقاً.

أصيب بوخزة داخل جسده من الجهة اليسرى، لكنه تطامن وأخفى أمراً، غرد كنار أخضر لحناً جميلاً، صرّ على أسنانه، ودلت عضلات فكيه على ذلك، نظر للسماء والنساء، كأنما يحاول إظهار انه هادئ أمام كل الناظرين، لكن الغد له أمر آخر يدبره يونس ولو بعد حين، مشى يونس مبتعداً، لكن التعب كان بادياً على حركاته، ظل يونس يمشي هادئاً، سمعنا زمجرة واضطراباً من بعيد، قدر الجميع أنه من الحوت المكبوت.

عمان ٢٠٠٤

زمارة في سفارة
FLUTE IN EMBASSY

كان يعمل في إحدى الوزارات التي تجاور مبنى السفارة، وبسبب التسيب والتراخي في المحافظة على وقت الوظيفة وواجباتها، كان حمدان يخرج من مكتبه في الوزارة أي وقت يشاء يوميا، ليغيب ساعة أو ساعتين، وقد تصبح ساعات ثلاث، دون خشية من مسئول أوعقاب، ربما كان من حزب الحكومة، أو من شلة قوية تدعمه أو تحتاجه، وربما لم يكن هو الوحيد الذي يفعل ذلك في تلك الوزارة والوزارات الأخرى.

يحرس السفارة رجال أشداء من نفس جنسية السفير، ورجال مهابون خارج مبنى السفارة من البلد المضيف، من مكتبه وقبل خروجه في ذلك اليوم سمع حمدان صوت نداء، نظر من النافذة، فإذا شخص بجانب السفارة يشير له بالنزول، حمدان له معارف مع الكثيرين قرب موقع مكتبه في الوزارة، فحين يخرج حمدان دون استئذان يقضي أغراضه الخاصة، أو يزور السفارة، وكان يزور بعض البيوت المجاورة أثناء ساعات العمل، وربما تجرأ ودخل بيوتا دون وجود صاحب البيت، ولا نعلم تفاصيل مثل تلك الزيارات، فهل كان يدخل بترحيب أم بحيل، بمقاومة أو بلا مقاومة، لكنه كان يحكي لزملائه أحيانا أنه شرب فنجانا من قهوة لذيذة قبل ساعة أو ساعتين، وما زال طعمها ورائحتها بين شفتيه وفي حلقه.

بعد عشر دقائق من مشاهدته لإشارة موظف السفارة، وجد نفسه يجلس في إحدى الغرف يستمع لموسيقى ناعمة مهدئة، مرتاحا متراخيا

على أريكة وثيرة يحادث الرجل الذي دعاه. يمر رجل أكثر أهمية في السفارة، يظل ممسكا بيده بعد السلام عليه، يسحبه إلى صالة جانبية بعيدة قليلة الأنوار قائلا له :

لماذا لا تجلس هنا لمشاهدة الفيلم السينمائي المثير معنا؟

كان في الصالة أربعة رجال وست نساء بألوان وملابس مختلفة، أربع أعمارهن دون الخامسة والثلاثين واثنتان كانتا في الثامنة عشرة أو العشرين من العمر، متناسقات الأجسام وجمالهن فوق المتوسط، بل كانت إجداهن جذابة كاملة الأنوثة والإغراء، ممتلئة ملتفة، لكن بروز ثدييها المكورين المشدودين يملآن كل فراغ ممكن في ردائها، أجلسه على كرسي بإشارة مستعجلة من يده، وأمر موظف جهاز السينما بالبدء بتشغيل الفيلم، غادر ذلك الموظف بعدها قائلا (سأعود بعد قليل إذا استطعت).

يرتفع عزف مزمار بألحان شعبية في ركن آخر من السفارة، ولأن الفيلم لم يرق لحمدان، لأنه يدور حول التجسّس والنساء والعنف والمقامرة، فاتجه صوب العزف والغناء، تلقفه أحدهم وضمه الى حلقة الدبكة مع الراقصين والمغنين احتفالا بمناسبة تتعلق برئيس بلد السفير، كان عازف الناي ساحرا بعزفه وألحانه، يتصل حمدان بصديقه الدكتور عزمي ويدعوه لجضور احتفال السفارة الباذخ، وحينما عاد لصالة الرقص بعد الاتصال الهاتفي وجد امراتين جميلتين تشاركان الرجال الثمانية في الرقص والغناء والدبكة. الجو كان مزعجاً وبارداً في الخارج، تهب رياح تهز الأشجار وتزمجر خارج النوافذ، أحسّ ببرد رطب في أنحاء جسمه، أحسّ كأنه بلا ملابس، كيف ان النساء لا يبردن

وهن يسرن شبه عاريات أحياناً؟ لكنه تذكر الحيوانات في الغابات القريبة والبعيدة، وبعضها بلا فراء كثيف يدفئ أجسادها مثل الماعز والظباء.

كان الدكتور عزمي سمينا، فلم يستطع المشاركة ولا الوقوف طويلا لمتابعة الحفل، ففضل أن يستريح في ركن جانبي من صالة الطعام والشراب، يحتسي أي شراب يرغبه أو تشتهيه نفسه، فالطاولة المستطيلة الطويلة في وسط الصالة عجت بمشروبات حارة وباردة وكحولية وعصيرات متنوعة، وبأصناف لا تعد ولا تحصى من الطعام البارد والحار، لا يتوقف في صالة الطعام إلا نفر قليل من كبار السن من رجال أو نساء سمينات أو غير جميلات، أما الشباب والصبايا الراقصات والمشجعات يحضرون للشراب السريع ثم الى حلبة الرقص أو المكاتب أو إلى دهاليز طويلة ملتوية وبعيدة، لم يسبق أن اجتازها حمدان من قبل، مع أنه يزور السفارة مرة أو مرتين شهريا.

يستمع حمدان صفيرا قويا من بوق، يتجه صوب صديقه الدكتور عزمي، فوجده قد شرب فنجان قهوة وكأسا من عصير التفاح وقطعتي كاتوه، وما زالت كأس ماء مملوءة أمامه على المنضدة، فبادرة بسؤال بعد أن اقترب بفمه من أذنه اليسرى التي بها سماعة.

هل تسمع ما أسمع؟

اتجه الاثنان الى غرفة موظف السفارة الذي دعاه وكانت في الطابق الثاني، شاهدا السفير بسيارة ضخمة غريبة الشكل والمواصفات وضد الرصاص يناقش الحرس الخارجي من الدولة المضيفة،

لدينا أوامر بعدم السماح لسيارات السفارة بمغادرتها في وقت كهذا.

فتح السفير باب سيارته، أنزل قدما على الأرض ونظر وراءه، اطمأن أن سيارات السفارة العشر تصطف خلفه جاهزة للتحرك وراءه أو حوله أو أمامه، قال السفير لرئيس الحرس الذي يحاصر السفارة

- نحن خارجون لتزويد سياراتنا بالوقود

-عفواً سيدي، لدينا أوامر بعدم السماح لسيارات السفارة بالتحرك خارج المبنى ولا بالتزود بالوقود، وإذا أردتم الخروج مشيا، أو نطلب لكم سيارات تاكسي فلا اعتراض لنا على ذلك.

لم يجب السفير بكلمة، داس على البنزين فقفزت سيارته المصفحة بقوة وبسرعة، سمعت طلقات نارية، لكن السيارات العشر اجتازت باب السفارة خارجة واتجهت صوب أقرب محطة بنزين في الساحة المقابلة على بعد نصف كيلومتر.

لم يضع حمدان الوقت، لم يشأ أن يدور لينزل على السلالم أو المصعد الكهربائي، بل تمسك بحديد الشرفة القوي في الطابق الثاني، دلّى نفسه صوب الأرض، ولأنه كان طويلا لم تؤذه القفزة، أسرع ماشياً في شبه هرولة صوب سيارته على بعد مائة متر أو أكثر من السفارة، وقبل وصول المزيد من الرجال والدبابات، يتجه حمدان إلى مقر عمله في الوزارة التي يعمل بها دون اكتراث بتفاصيل ما يحدث.

أمريكا في ١٩٩٨/٧/١٧

أقصر الحلول

THE SHORTEST SOLUTION

جمعتنا الصدفة في سيارة نقل عام فخمة (ليموزين)، تحدثنا في أمور مختلفة منها تطرف اليمين وأحلام اليسار وآمال المعتدلين، أحد الركاب يطالع صحيفة، يظهر عنوان يقول (الشواطئ الملوثة لا تنظف بالمكافحة التقليدية، مضى على إهمالها عشرات السنين، لذا فتطهير التلوث وإعادتها للأصل يتطلب عشرات الأعوام).

ظننتها عربية مهاجرة، لكن تبين أنها ليست كذلك، ربما كانت شركسية أو شاشانية أو روسية الأصل، قالت أنها مسلمة بالولادة، سرعان ما أصبح الجوّ حميميا في السيارة، امتدت يد السائق تحت الكرسي، فتح حقيبة بلاستيكية، ناول كل واحد من الركاب الأربعة علبة شراب، قال السائق

– ما زلت أشعر بالحر برغم برودة مكيف السيارة، فهلا برَد جسم كل منكم وروحه؟ وتجاوبت أصداء الموسيقى المضخمة الصوت، انتقلت أصابع السائق تعبث بمنظم الصوت تقوية وتفخيما، ترقيقا وموازنة، تبدو الراحة النفسية على الصحافية، فتسارع بفتح علبة شرابها، وتلصق فتحتها بشفتيها في شغف، أما رفيقتنا الأخرى ما زالت أناملها تداعب العلبة، تتحسس برودتها، تقلبها ثم تلف سبابتها اليمنى على الحلقة للسحب والفتح. سألت الصحفية إن كانت تتمنى زيارة الجزائر أو لبنان أو فيتنام أو موسكو أو ديزني لاند. كشفت لنا قبل قليل أنها

مندوبة وكاتبة مقالات لصحف عدة، قالت

– أقرأ التاريخ والسياسة والاقتصاد والأيديولوجيات بلغات مختلفة، قابلت الكثيرين من السياسيين والأكاديميين والمنظرين. وعنوان آخر كان في الصحيفة (يبدو أن الطريق شاق وطويل للمحافظة على الثروة السمكية) تتقن الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية، بالاضافة إلى لغتها الأم والتي لم تخبرنا عنها، توفيرا للوقت ربما، أو لإثارة فضولنا، تفحص صبرنا أو تسرعنا، وتجنبا للحرج لم يسألها أحد منا عن أصولها. نتوقف طويلا أمام باب المدرسة، ثم يسمح لنا أخيرا باجتياز الباب الخارجي بعد جدل وحوار بين الحارس والصحفية، ظننا في البداية أن الصحفية من أقارب مدير المدرسة، لكن تبين أنها تريد لقاءه لإجراء حوار معه، وفهمنا أنه يحب التعرف على الصحفيات، ويرحب بلقاءاتهن بين الحين والأخر خارج وقت العمل، وبعيدا عن جو المكاتب والمنازل، دار نقاش آخر حول الباب الذي سنمر عبره، لكن خادما شابة تصل، تقودنا عبر باب خلفي دون كلام، (إنفاق الملايين من المال لا تكفي إذا لم نكن واعين لما علينا أن نفعله)، درجات صعبة وقصيرة وبساند معدني خفيف يستند إليه الصاعد. أنت تحمل عصاك وتتوكأ عليها، تصعد الدرجات ببطء مع بعض الألم، أما الرفيقة الأكثر قربا منك فتعاني من آلام في ركبتيها وأسفل بطنها، لا تدري ما الذي جاء بها هي الأخرى في هذا االيوم العصيب، تصعد درجة أو اثنتين ثم تتوقف، تتنهد، تستنشق نفسا طويلا متقطعا لكنها لا تكشف عن شقائها، تنظر لك فيعذبك عتاب عينيها الجليّ، حتى الفتاة الجميلة الشابة الأخرى، تشكو قليلا من الترهّل وزيادة في الوزن، أما الصحفية

فأصبحت تميل يسارا ويمينا أثناء صعودها ومع كل خطوة للطابق الأعلى، المهم أن يعرف الإنسان ما يريد، ويحافظ على نظافة بيئته وحقوقه، ولا بد أن تسعى دائما للأفضل، تنسى نفسك وعصاك وشكواك وشيخوختك، موظفة بدينة لا تخلو من جاذبية وجمال توقف الجميع لتستفسر لنا من المدير (أين ومتى سيستقبلنا)، فتبادرها قائلا

- يا أستاذة نحن قادمون للاطمئنان عن طفل يتيم صغير في مدرستكم، نريده أن يرانا، ونريد أن نراه ونتحدث إليه، ويا ليتنا نستمع من معلمته، علنا نعرف مشاكله إن كانت لديه بعض المشاكل. فتجيب ببرود :

- لا بد من اطلاع المدير على الأمر!

- لا بأس في ذلك، لا نريد أن نمكث دقائق طويلة، (لا تريد المماطلة ولا نتمنى البقاء في جو مشحون بالتنكر أو التحيز) هو طفل فقد والده، ونريد أن نطمئن على ظروفه وصحته الجسدية والعقلية. تتمسك البدينة بقضبان الحماية القوية المثبتة عند نهاية الدرج، مصغية لما يجري، بينما الصحفية المسلمة بالولادة لا تظهر قلقا ولا تأفا، تنتظر بتفهم وبلا ملل، لكنها تقول

- إذا كان مايحصل في مدرسة خاصة..

لا أسمع التمتمات والهمس من بعد، ملت صوب رفيقتنا الأخرى أسألها عما قالت الصحفية، فوجئنا بعدها بفتاة جميلة جدا تدعونا لدخول صالة انتظار الى اليسار من السلم، وقبل أن يعاد على مسمعي ما قالته الصحفية، وفور دخولنا للغرفة المريحة أدركنا أننا كم كنا بحاجة

للجلوس، عدت أفكر فيما سبق وقالته الصحفية المسلمة بالولادة عن قصص الأطفال المحرومين والأيتام الفقراء، وقبل أن يحضر المدير للتحدث إلينا أو لدعوتنا لغرفته بحضور الطفل الذي نريد لقاءه، ملت صوب الصحفية أسألها ، وما هي أقصر الحلول لأشد القضايا ظلما وتعقيدا في التاريخ الحديث، أجابتني بكلام مختصر كأنه مدروس ومعد سلفا في رأسها، أو حفظته عن ظهر قلب من كثرة قراءته أو ترديده

- لا تدري أين تبدأ ولا أين تنتهي، لاتعرف الرفيق وربما تضلّ في الطريق، وتخشى أن تنوء في التفاصيل، عالم صاخب، ليس هناك وقت كاف لليمين ولا لليسار، فالهذار والخصام والملام أمواج تعجل في الغرق، والدنيا لمن غلبا.

١٩٩٩°/١/١٤

---

٥ المكان والزمان متخيل ولم يكن في ذهن الكاتب أشخاص معينون ولا أي مكان بل كله خيال ماجاء في القصة هو من وحي الخيال

ذئب
WOLF

كان في طفولته ضعيفا ومريضا، والداه أهملاه، يئست الجماعة من قدرته على مجاراتهم، وكلما مرت الشهور ازداد تخلفا عن القطيع واحس بضعفه والوحدة، لا يستطيع أن يكون قويا مثلهم، إن بقي له طعام بعد شبعهم أكل، وإلا جرجر جسمه إلى بقايا أي شيء عفن جاف، يعلكه أو يمصمصه، اعتاد على الجوع، وازداد قربه من مواقع الإنسان وفضلاته، دفعني فضول الكلاب للاقتراب منه، لم أصدق ما قيل لي عنه :ذئب ضعيف رقيق نأى بنفسه عن طبع الغدر والاستقواء، لا يفكر بالحيل مهما عانى، حاسة الشم فينا نحن الكلاب دفعتني لاكتشاف مواقعه، ثم لاحقته، كان يوما حارا، تزايدت رطوبة الجو فيه، غمست جسدي كله بماء النهر النظيفة، سبحت وسبحت وأنا أحسّ بالفتوة وريعان الصبا، أكثرت من اللعب والسباحة يومها في الماء، خرجت جائعة خاوية البطن، التقطت سمكتين من النهر والتهمتهما، أعجبت بألوانهما الجميلة، الجوع لم يمنعني من ابتلاع الجمال، حين أمسكت الأولى ابتلعتها دون عض ولا مضغ، تهوي إلى حلقي وهي تتحرك، كدت أتقيأ، تشاءمت يومها، أصمم بعدها ألا أبتلع ما أصطاده دون أن أمضغه جيدا، لكنني شعرت بالمزيد من الثقة بنفسي ككلبة قوية فتية، أخرج من الماء نظيفة مبتردة، أجفف جسدي، أنفض الشعر الطويل على ظهري وجانبي، سقط الكثير من شعري الجاف مع رذاذ الماء المتطايرة، لكن

لمع جلدي وبدت نظافتي، حاول كلب الجيران أن يتملقني، اقترب بلسانه من شعر رقبتي وذيلي، لكن فرديتي وعلو طموحاتي تنكرت لمداعباته، همتي الشابة وعزيمة الطيش تجعلني أصمد أمام ذكور الكلاب أحيانا، كلهم أطروا على أنوثتي، وحاول الكثير من الكلاب استرضائي، لا أرتاح للمنافقين والمتذللين والمغرورين، رشّحني الكثيرون لأنجب لهم نسلا محسنا.

قوة غيرعادية تثور في جسدي ذلك اليوم، خفيفة رشيقة مع انه كان حاراً، أنطلق كالريح كأنني بأجنحة وشعري هفهاف يرفرف في رشاقة ساحرة، قال الذئب لي أنني شفافة، يرى فيّ كل صفات الجمال في إناث الكلاب، و قال أنه حلم بكل ما وهبت به من جاذبية، ثم أضاف:

– لم أر جمالاً ورقة تعلن عن نفسها بمثل ما أرى فيك يا أجمل رفيقة! أرى كل الكلاب جميلة فيك! أتأمل عينيه لأتأكد إن كان صادقا فيما يقول، ثم يسترسل قائلا: أحس اليوم بالقوة وبجمال الحياة بقربك.

يومها تلمس جلدي ورقبتي وكل جزء آخر من جسدي، مشينا ومشينا حتى غابت الشمس، وكنا نلهث من التعب، رثيت لحاله البائسة، بان التعب عليه جلياً، اقترب المساء فانتحينا جانبا، غلبني طبع الأنثى فالتصقت به ليلتها، كان ذئبا حقيقيا في ساعات الظلام، نسيت كل ما قالوا عن ضعفه، مما جعلني أسير مختالة برفقته في الأيام التالية. لماذا تكثر الأشواك والنباتات الجافة في طريقنا؟ حاولت جماعة الكلاب قمعي، لكنني لم أكترث، وازددت إصراراً على ما أنا عليه، بل وهزئت من كل الكلاب الضعيفة التي لا تتقن إلا النباح واستجداء

الطعام والمأوى، ألست تحت مظلة ذئب؟ كرهني الأهل وتمنوا الانفراد بي لمعاقبتي وربما لقتلي، بقيت أعتقد أنني أفضل حالا من كل الكلاب، صرت أحسّ بالسعادة كلما ذهبت للصيد معه، وهذا هو المهم عندي، مع أن عبء التقاط الفريسة أو الفطيسة يقع عليّ، كنت أشفق عليه حين يبدو عليه التعب، وفي أوقات أخرى أسرح وأحضر له طعاما وهو مقع في جحر أو بين شجيرات كثيفة، لكنني كنت في غاية السعادة، أصابه مغص في بطنه قبل ساعات، فبقيت بجانبه حتى أبلّ من مرضه، بعدها خرجت برفقته مختالة نبحث عن طعام طازج نأكله سوياً، تمر ذئبة عجوز تحمل دجاجة ميتة، ينبح كلب ضغير جائع ورائي، تبعها الذئب الضعيف صرت أناديه، لم يعرني اهتماما ولم يسمع نداءاتي، التصق بالذئبة العجوز وتركني، ابتعدا إلى شاطئ النهر الغربي، نظرت حولي باحثاً عن الكلب الصغير، من أبناء جنسي، لكنه أدار ظهره وجرى خبباً مطأطئاً رأسه مبتعداً.

٢٠٠٩

تطور

DEVELOPEMENT

شابان يسيران على مقربة منكما ربما بلا هدف، يتقاربان حينا ويتحادثان، ويتباعدان حينا أخر وهما يؤشران، كلاهما بصحة جيدة، تسير بثقة أمام زوجتك، تتبعك هي الأخرى بشيء من التعب، لسان حالها لائم عليك لأنك تركت يدها وسبقتها الى الدكان ضالتك، وتريد هي الذهاب لدكان آخر يعنى بحاجات النساء، تتوقف مترددة، وتحجم عن اللحاق بك .

يقترب الشابان، تراهما قبل أن تدخل المتجر، أحدهما يتجه صوب زوجتك والآخر يتجه إلى الجدار المقابل يقف مراقباً، كنت متعجلاً، كان همك التحدث مع صاحب المتجر لشراء ما تريد، توقعت أن تتبعك زوجتك داخل المتجر، تخرج بعد دقائق لتكتشف أن فم الرجل الممتلئ قرب وجهها، يجلسان على كرسي معدني وضع في الساحة العامة قرب باب الدكان، لم تستطع الحكم أكانت خاشعة أم ملتصقة متجاوبة في التصاقه بها، تمتد ذراعه فيحيطها كتفيها، ثارت حميتك، تحاول مفاجأتهما، يبعد فمه قليلاً عن وجهها ثم يسألك: هل تكلمني؟ فأوجه كلامي لها وأنت ؟ ما رأيك فيما يجري يا صاحبة العصمة؟

وماذا تريدني أن أفعل داخل متجر أدوات وعدد؟ دخلت وحدك وتركتني، فتقدم هذا الشاب الجريء وضمّني دون استئذان ولا مقدمات، فماذا تريدني أن أفعل؟ يبدو أنه قادم من عالم غريب، من غير عالمنا الذي اعتدنا عليه.

يخاطب نفسه : لم تكن أمي هكذا أيتها الزوج الغريبة، وهل من الضروري أن أبقى حارسا ليل نهار عليك حتى نبقي على حالنا؟

يتقدم الشاب الآخر صوبك يسألك وماذا تريد، وقبل أن تجيب تجتاحك ألف رجفة من تيارات كهربائية صادمة. يقف الشابان متحفزين، يبرزان عضلات صدريهما تارة، ويلفان أكمامهما لإبراز عضلات أذرعهما المفتولة، أدرك جيدا معنى الرسالة، لم أرغب أن تصاب زوجتي بضرر، ليس له إلا الهدوء للحظات ليرى ما الذي عليه أن يفعله، مشى خطوات قليلة مبتعداً فعاد الأقوى للالتصاق بها، لمحها مستسلمة دون مقاومة.

تزداد الريح في عصفها، ويلتصق غبار الشارع في عينيك، أوراق وخيوط وأكياس نايلون سود تتطاير من حولك، تتجه صوب دكان آخر في الجهة المقابلة، تجهز ما توفر من نقد لديك، تخلع ساعتك، والخاتم الذهبي الكبير الذي في أصبعك ونظاراتك الشمسية الثمينة، تستطيع إقناع بائع السلاح أن يبيعك مسدسا صغيرا مع القليل من الذخيرة (لو اتصلت بالشرطة فقد يتأخرون ويقتلاك قبل حضورهم، لكنك تعلمت من الأفلام الحديثة ومن الأنترنت أن الحق يلزمه قوة رادعة)، ماإن شاهدك الشابان حتى سابقا الريح، تتوقف زوجتك انتظاراً لرصاصتك القاتلة، انطرحت على الأرض فور سماعها الرصاصات الثلاث،

تتفقد نفسها للتاكد أن أيا من الرصاصات لم تصبها ، سمعها الناس تصيح

- ياويلي ، زوجي ، زوجي ياناس، قتلوه، قتله حاله ، هل تسمعني يا زوجي الحبيب؟ حبيبي لا تغيب عني ، يا ويلي مات زوجي (قدام) عيني .

٢٠٠١/٥/٧

لماذا لم نصحبه

WHY DID NOT ACCOMPANY

بعد عصر ذلك اليوم جلسنا على صخرة بارزة من تل رملي جلسنا نجفف وجوهنا، ونمسح العرق والرمل عنها، في تلك الأرض الفسيحة الموحشة توقفت وصديقاي، من هو المجنون منا؟ أو أن ثلاثتنا مجانين، التقينا واتفقنا وها نحن هنا في هذا المكان المنعزل، نحط رحالنا نستريح من عناء ما لا قينا من عناء وإعياء، أصبحت لا أقوى على احتمال مواصلة السير إلى ما ننشد، ومشروع سيرنا في رحلتنا تلك كان بلا استعداد ولا إعداد، طيش شباب معنا سبعة أيام في إجازة من العمل ، فأردنا الوصول الى مكان عرف عنه أنه مثير للغاية في واد غريب وعريض في الصحراء، تنمو أعشاب حوله وأزهار طبية كثيرة، وتتكاثر قطعان الحيوانات الصحراوية في أرجائه، منينا أنفسنا بمتعة وبمغامرة قد لا تتكرر في أعمارنا، رحلة استكشاف وقسوة لا يقوى عليها إلا الشباب، أو هكذا أقنعنا الذين فعلوا مثل ذلك قبلنا .

آه ما أطيب الراحة، أنني أحس بآلام تسري في كل موضع من جسدي، لم أكن أجرؤ على الشكوى من التعب لولا توقفي عن السير. فراغ شاسع وسماء كئيبة شاحبة، تبدو عليها صفرة الفزع ، والشمس تزحف في تثاقل وراء الأفق الكبير الواسع، تحيط بنا الشعاب والتلال من كل اتجاه، لكنني أراها تبدأ بالإطباق علينا، فأزداد إحساساً بالوحشة وغموض المصير، ومع هذا لا أجرؤ على ذكر ذلك لصاحبي،

وربما كان كل منهما يحمل نفس تلك المشاعر، بدأت القدرة على الرؤيا تشيح بوجهها عن دنيانا التي نعرفها، وأخيرا أمسينا وحدنا نصارع الظلام الزاحف، حاولت أن أسلي نفسي بعدّ النجوم التي تظهر في السماء واحدة إثر أخرى، وأحاول الاستئناس بها، لكن بلا كلمة إلا من تأوهات مكتومة (هذا نجم بدا واضحا، وذلك نجم آخر وذاك آخر أصغر، ما أغباني!) .. إنها تتكاثر بسرعة ، حتى أصبحت السماء بساطا منثورا بحبوب وضاءة مبعثرة.

أحس بأطرافي تتخدر، وكل عرق في جسمي يودّ التوقف عن الارتعاش، لم أدرك لحظتها أهو من التعب أم من القلق، حتى أن أهداب عيني ضاقت أو تكاد تلتصق العليا بالسفلى، وأن خيوط السماء بدأت تدق في ناظري، بعد أن استأنفنا السير لساعة أو أكثر وقبل غروب الشمس، اقترحت على صحابي الجلوس في منبسط منخفض قرب دعص من رمل ناعم متراكم، ولم أكد أكمل جملتي حتى كنا نلتصق ببعضنا منكمشين متهاوين، رئتاي تستمرئان الراحة وتعودان لعملهما الطبيعي قليلاً قليلاً، هواء نقي لاشك، يمازجه روائح بعض الزهور والأشواك البرية في أواخر شتاء ذاك العام، يداعب النسيم الأجزاء الظاهرة من وجودي ببرودته الملطفة، جعلتني أنسى العرق الذي سحّ كثيرا منا أثناء النهار، حاجتي للراحة تلجم لساني وأنا المتكلم في معظم الأوقات، أتطرق أثناء الراحة إلى مواضيع مختلفة مع أصحابي، لكن تراكم التعب على جسدي كله، يجعل الخدر يسري في ذاكرتي، فأراني محلقاً لأعالي تلك التلال الرملية البعيدة العالية حولنا، علني أكشف الأرواح والبنات البدويات أمام خيامهن، أو في أماكن التقائهن مع الشباب في

مراتع الرعي، أو حيث التقاهن امرؤ القيس قرب مكان السقاية أو حتى في قيلولة ظهر، ما أكرم بدو الصحراء وما أظرفهم في تلك المواقف، قالت لي بدوية شابة في مثل عمري قبل شهور

– إننا لا نمل رفقة الشباب مهما طالت في أي مكان، ولا نحب أن نرفض طلبا أو رغبة، ما دام لا يوجد حولنا من يعيبنا، تمنيت نفسي بدويا يومها، أحببتها تلك البدوية الرائعة، كانت تلبس ثوبا خفيفا صيفيا منسابا خشناً، لكن تضاريس جسدهاالمتمردة تعطيه شكلا جذابا. يسارع الرفيق الأول قائلاً

– وماذا لو التقيت بدوية ترعى غنمها أو الإبل؟

– أنا الخبير بهذه الأمور، سأكون حبيبها بسرعة، فيقول الرفيق الآخر ذو العضلات القوية

– وهل تظن أنني سأبقى متفرجاً وتحظى أنت باللبن والتمر والصحبة؟ فيعود الرفيق الأول

– لكنني أنا الذي التقيتها، وقلت لكم لو انني لقيتها، فلماذا تتطفلان عليّ

– وهل أنت بدوي قلت له؟

– يبدو اننا كلنا بدو، حتى لو أقمنا في المدن والقرى ولبسنا أحدث الملابس العصرية؟ فأجابه ضخم العضلات

– وماذا تقصد بكلنا، وهل أنا مع ذاك الجمع، لكن عقولنا وجوهر تصرفتنا بدوية، قلت له لا تختلفا، فكل حياتنا اختلافات في كل زمان، وأينما أقمنا، فماذا نحن فاعلون في عزلتنا يا أحفاد البادية؟ لن نتفق ونحن ثلاثة، فكيف لو اجتمع الكثير من أمثالنا؟

بعد إطباق الظلام علينا، أسمع في صمتي وتأملاتي وشوشات حشرات أو حيوانات صغيرة برية تقترب بأجسامها من بعضها، تنشد الدفء والراحة والأمان، وأنا في غفل عما يهذر به صديقاي أو يفكران به، أحس بأنفاس الحيوانات اللاهية أو الباحثة عن طعام لها أوالراقدة مثنى، منها القوي الذي يعيش على حساب الأضعف منها ، ومنها الهارب دائما من الأقوياء يبحث عن الفضلات أو عن خشاش الأرض من الحشرات أو صغار الحيوانات، التي تحسّ ربما بمثل ما أحسّ به، تتشاور متهامسين وماذا بعد؟ لا خبرة لنا ولا معرفة بلغة الصحراء ومتاعبها، أحس بالبرد وأتلوى من التعب ، يزداد الهواء الصحراوي برودة، صديقاي يقتربان مني يحاولان سماع كلمة مني أو تعليق على هذه المغامرة، لكن صمتي وندمي زادهما حيرة وقلقاً، أنت في موقع بعيد، وموقف صعب، وكل ما حولك يعاديك، إلا صديقاك طبعا، تذكرت ما قاله طارق بن زياد لجنوده، (العدو أمامكم والبحر من ورائكم، وانكم هنا أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام)

لا بد من التدثر جيدا بما نحمل من غطاء، حتى تمر الليلة القاسية برياحها المحملة بالرمال، سألني أحدهما كلاماً لم أفهم ما قصد، لم أفطن له ولم أعبأ بالردّ عليه، أنهكهما عناء السفر، وسرعان ما غطّا في نوم عميق، ربما لأنهما لاحظا أنني ما زلت صاحياً أحرسهما، فغابا عن هلوسات المغامرة، وتناسيا أسرار الوحدة والعزلة في صحراء نائية، مستسلمين لكل ما قد يحدث اقتناعا بعجزهما وعدم قدرتهما على ردّ أي سوء.

طال تأملي وامتد شخيرهما، وفلقة قمر صغيرة تزحف في السقف الأعلى البعيد، أفتح عينيّ بعد الساعات الطوال لألمح النهار قد بدأ يشق طريقه إلينا من جديد، والشمس تحركت كثيراً وأنا أحاول جمع عيدان حطب، وأشعلت ناراً صغيرة قرب مكان التصاقنا، حاولت إيقاظ صاحبي، لكنهما زادا من الاستغراق في النوم، غسلت الشمس وجهها مبكرة في ذلك الصباح، وأول ما وجدتني أفعله كانت أصابعي تعبث برمل الصحراء البارد لتجمعه حول ناري الضعيفة في ذلك الصباح، قمت أتمضمض وأوقظ صاحبيّ لنتهيأ لخبرات جديدة، نجلس ثلاثتنا قرب النار ولنشرب القهوة التي سخنتها، بينما مضغ كل منا ثلاث حبات من التمر أو أربع مع جرعة قهوة أو ماء بين كل حبة وأخرى، حتى نواصل المسير إلى المرج المزهر النادر في الصحراء، في منبسط بين تلال رملية، والغبار التي تتطاير أثناء مساراتنا يلتف أحياناً ويعود جزء منه إلى أعيننا وصدورنا، قبل ظهر اليوم الثاني كنا منشغلين بتأمل جماليات تلك الواحة النادرة من النباتات البرية غير المعمرة، والأعشاب والأزهار التي لم نشهدها من قبل، أكلنا زادنا وشربنا ماءنا، ولم نرغب في قضاء الليلة في ذلك المكان الساحر المعزول، قرب الغروب وجدنا أنفسنا نغذ الخطى عائدين، أكلنا زادنا وشربنا ماءنا، لم نجرؤ على قضاء الليلة في ذلك المكان الساحر المعزول، لأننا أتينا على ما تبقى لدينا من طعام، خشينا من الجوع في اليوم التالي، قرب الغروب وجدنا أنفسنا نغذ الخطى عائدين متخففين من الكثير مما حملناه معنا، إلا بقليل من ماء، بعد غروب الشمس لم ندر أي اتجاه نسير، ضللنا الدرب، أو إن الرياح حملت الرمال لتخفي معالم الطرق التي سلكنا عبرها في

حضورنا، تأكدنا أننا لن نستدل على مكان وقوف سيارتنا، بل وبدلاً من ا لاقتراب منها فربما نكون نبتعد، بسبب الليل، قررنا المبيت ثانية في الصحراء بلا طعام ولا غطاء، ومع بدء عد النجوم وتكاثرها تساءل كل منا لماذا لم نصحب بدوياً يعرف المنطقة معنا.

المسودة الأولى خطت في مدينة الخرج / السعودية ١٩٦٣/٣/٢٢

طال الحلم
LONG DREAM

بينما كانت الأحلام تداعب عينيه، تلوح حمامة من مكان بعيد تحوم، تتجه صوبه، تهدئ من طيرانها، تهوي قربه على غصن رطيب، يهتز الغصن للأعلى وللأسفل مرات عدة، ويبقى الطير متشبثاً بغصنه الريان، تظاهر بعدم الاهتمام حتى لا تخشاه أوتجفل منه، وحين اتجهت أنظاره لها، أحسّ أنها خطفت روحه عَلَت بها، تطير بعيدا بعيدا، يلتصق بها وبرودة تسري في أوصاله، اضطر للاقتراب من ريشها، وكلما اقترب يحس بدفء وطعم أمان، تشاغلت عنه في تحليقها، صار يسلي نفسه ينزع بعض ريشها الزغب، يلهو به ويغطي به روحه المتعلقة بجسدها، وحين سألته والدته عن شكواه، قال (آذتني اليمامة)، سخرت أمه من كلامه، أجابته إنها أضغاث أحلام ياولدي، مشى في الصحو والمنام، ووالدته تدعو له بالسلام.

وبعد ان حطت حمامته بعيدا، هاجمته آلام مختلفة، وفي أماكن متعددة، صاح "بطني! بطني! آلام تنكد عيشي!" قال الذين سمعوا صياحه

- إنه الجوع! ربما هو الجوع! فصاح متألماً

- ريش قوادم الحمامة المحلقة وخوافيها، آه ياحمامتي لا تتركيني، ريشك وزغبه تغطي كل كياني، تراودني أحلام المكان البعيد.

قبل اسبوع لمسوا رأسه، هدهدوا ظهره ورقبته، بسملوا وحوقلوا، نصحوا والدته أن تعثر له على شيخ واصل، أما شقيقته فقد دفعته

وعنفته، لعنته وحرضت الأولاد عليه، انتهرتها أمها قائلة

– أنت طفلة وحاقدة على أخيك. تغيب شمس ذلك اليوم، ويظلم الليل، هاجت القرية وماجت، لم يبق مكان إلا ومروا به، ولا ولدا إلا وسألوه، قال الكبار الصبح ربح ،

ظل يسمع والدته تغني له طول ليله، عد إلى أمك أيها الطفل! لتقدم لك عشاء مبكرا، هذا الزمان والمكان للذئاب وللغزلان، عد لبيتك بسرعة!

طال بحث أهله عنه في الزوايا والأركان، تساءلت أمه مع الجيران، وعيناها تكادان من محجريهما تقفزان، دارت الحارات هاتفة هاذية، أخذت معها ابنتيها، وكلما مشت لدقائق في اتجاه دعت إحدى ابنتيها للسؤال عنه، ملّ الآهل وتساءلوا (أين ذهب الملعون، لا شك أنه مجنون) ، قالت أخته : يحب الحمام الجوال، انتهرتها أمها كعادتها تقول لها

– هل أنت شقيقته حقاً أم شقية؟

حين اختطفته الحمامة وطارت به بعيدا، رأى تضاريس جميلة، وجاور أماكن لم يألفها من قبل، أسعده التحليق والتشبث في الليل، وحين حطت على الشجرة العالية جرّحته الأغصان المتشابكة، تمسك بها وزاد التصاقه، حتى رأى الفجر يمسح الظلام، والشمس تعمل جادة على إنارة الكون، بدأ بعدها رحلة العودة إلى أمه وأهله، تقادمت ثيابه واعتراها البلى والتمزيق، وعندما احتضنته أمه فرحة بعد غياب طويل، طال نومه وهو يقول كلاماً لا يفهمه أحد.

١٩٩٧/١١/٧

طاعة عمياء
BLIND OBEDIENCE

لماذا وقع اختيارهم عليّ؟ يرن الهاتف وبدون تحية ولا مقدمات تقرع أذني كلمات

– وصلتك رسالة ألكترونية، افتح الانترنت واقرأها.

حاولت الاستفسار أو التفاهم لكن خط الهاتف أغلق فور انتهاء الجملة التي سمعت، لم يسأل عن اسمي ولا تعرف عليّ، ولم يعرّفني على نفسه، كان صوته صلباً محايداً، يخلو من العاطفة، كالمضطر أو الملهوف، قال قولته في جملة مقتضبة وغاب، أو انه مكث طويلاً يتدرب على النغمة والأسلوب الذي سمعت، وكأنه شبه أمر، وأكاد أجزم أنه غير مشارك في ترتيب كلماتها أو صياغتها.

لست مضطراً للاهتمام بما سمعت، لم يسألني عن اسمي ولا أظنه يعرفني، لم ينطق اسمه كالمألوف في كل مكان، أو هل يكون من أولئك الظرفاء أو السمجاء الذين يحبون إزعاج الناس، يتصلون بأي رقم هاتفي يخطر ببالهم، وبطريقة عشوائية، ولماذا كان رقم هتفي هو العشوائي من بين الملايين من أرقام الهاتف في طول البلاد وعرضها؟

أتفحّص مفتاح سيارتي القديمة والتي زاد عمرها عن الستة عشر عاماً، ومضى عليها ست سنوات بصحبتي، سيارتي تشترك في كثير من الصفات مع زوجتي، عندما تضيق الدنيا بي ألجأ لها مضطراً، وحين أشعر بالوحدة أدعها لتشاركني سماع الأخبار والموسيقى، وحين

أحس بالملل أنشد اصطحابها، وحين يهزمني أحد ما أو يقلل من قيمتي أجدها بقربي تغنيني عن الظالمين والمتطفلين والمعتدين، لكن أهم صفة مشتركة بينهما أنها تقول لي (هات) دائماً أو أصلح ما تلف، أو تحرن ولا تسير إلا بالمال. لكنها أين زوجتي؟ ولماذا أنا هنا في أمريكا؟ هموم لا أقوى على شرحها، أتنبه فأجد نفسي وحيداً في البيت الواسع الأمريكي التصميم، أيتها القطة البائسة مثلي، برغم ثقل جسمك واستمتاعك بالصحة والعافية إلا أنك حبيسة البيت مثلي في أيامي الأخيرة، تتقدم وتلتصق بساقي، والجو بارد، فهي تلامس سروالي السميك الطويل، ليت الجو كان صيفاً قال في نفسه، لأكون مرتدياً سروالاً قصيراً، أحنى ظهره وداعب رأسها وفراء ظهرها، وعندما اقترب من ذيلها أحنت رأسها وأناخت، لم يفهم إن كانت متضايقة أو راق لها ذلك، فتابع لعبته بالاقتراب من جذع ذيلها، هبت شبه مذعورة، هاجمت يده لتعضها ثم ابتعدت عنه، تنظر خلفها ثم تعود ثانية لموقعها الذي نفرت منه، وتتمدد على جنبها الأيمن ضامة ذيلها بين قدميها، صديقتي التي لا هي شقراء ولا سوداء، مركبة ومعقدة، تتداخل في بنيتها جميع المنابت والأجناس والأصول، لا تعرف لها أهلاً، أو انها لاتهتم بمعرفة الأهل ولا الأصل، يقولون إن ملامسة قراء القطة ومداعبتها تساعد على إنقاص ضغط الدم، وأنا أتناول دواء للمحافظة على ضغط الدم كي يكون قريباً من الطبيعي، أحسّ براحة ما ومتعة، وتثير الكثير من فضولي وأنا أتابع تحسس فراء القطة، تمرّ أصابعي من رأسها حتى مؤخرتها، تقترب مني أكثر، تدور حولي مبتعدة قليلاً ثم تعود لتكرار اللعبة، ولكن ما إن أقترب من جذع ذيلها حتى تنفر لأقدام قليلة، تعود بعدها لتقوم هي

بملامسة سروالي الطويل محتكة به على امتداد جسدها، تمنيت أن أقلع ذاك السروال حتى يتناقص ضغط دمي حين يلامس شعر ساقي الطويل فراؤها الناعم الأطول.

يدي ما زالت في جيبي تمسك بالمفتاح، الجو بارد في الخارج، أجلس على أريكة عريضة أمام ناقذة واسعة جداً، وبعرض الجدار تقريباً، الستارة مزاحة للجانبين، وربما فعلت ربة البيت ذلك عن قصد، حتى يصل النور أو تتسلل أشعة الشمس كلما أطلت من وراء الغيوم، أو الأشجار الكثيفة العالية، تقع عيناي على بياض الثلج النظيف الناصع في الخارج، لماذا لا أخرج من البيت وكأنني لم أستمع للخبر الآمر على الهاتف؟ وبرغم برودة الطقس، ودرجة الحرارة تقارب الصفر، أشاهد زخات خفيفة من ثلج تتساقط كانت عالقة على أغصان الأشجار العالية والمحيطة بالمنزل، الشارع نظيف خال من الثلج، والسيارات تمر كالمعتاد.

ماالذي سيحدث لو فتحت جهاز الحاسوب، واطلعت على الرسائل الإلكترونية الواردة لي؟ فأنا فاعل ذلك آجلاً أم عاجلاً، وهذا لا يؤخرني طويلاً إذا لم أنشغل بتصفح مواضيع مختلفة على الشبكة العنكوتية، وفي نظري فإن نزولاً ناجحاً لمركبة على سطح كوكب المريخ هو نبأ يهمني، وبصراحة لا أدري لماذا يهمني.

أتحرك صوب جهازي الكمبيوتر النقال نوع إتش بي، يبدو أنني نسيت القطة، تموء هممت بملامسة ذيلها لكنني تحركت بهدوء وفي شبه شرود، تركتني عندما أدركت أنني لست مهتماً بذيلها ولا بفرائها، تفعل صديقتي هكذا، وخاصة وأنها تعلم أن ليس لديّ مال أشارك في

شراء حاجيات لها أو للمنزل الصغير الذي سبق واحتوانا، يضغط أحد أصابعي على زر تشغيل الحاسوب، أقوم لتجهيز فنجان قهوة، ريثما يكون الحاسوب جاهزاً، أخلط القهوة بقليل من (الكوفي ميت) لتبييضها، ويجعلني قادراً على تحمل شربها دون تحلية.

حافلات المدارس تمر بطيئة متثاقلة، تلملم الأطفال ذكوراً وإناثاً لنقلهم لمدارسهم في هدوء وطمأنية، والحافلات العائلية تمر من الشارع الذي يواجهني، ذاهبة عائدة، كلها سيارات جميلة وجديدة، أتساءل وباستنكار، أين تذهب سيارات الموديلات القديمة؟ أراني لا ألمح سيارة قديمة، ولم أشاهد عبر الشهور الأخيرة حافلة أسرية يزيد عمرها عن خمس سنوات، وأغلبها لا تتسع لأكثر من سبعة ركاب، ومعظم ألوانها فاتحة يقترب كثيراً من بشرة النساء الشقراوات وشعورهن في هذا البلد، ويتغير لون الجلد والشعر بتغير الأنوار وانعكاساتها، أو مع المسافات أو بالزمن، وحتى باختلاف النظرات قوة أو ضعفاً أو استيعاباً وتخيلاً، أضع كلمة السر فتنفتح شاشة جديدة تواجهني قائمة طويلة من رسائل واردة، معظمها دعاية رخيصة، لها علاقة بالجنس وبالتواصل بين الذكر والأنثى ومواضع العري وجمال الأبدان والمقويات الجنسية والتعارف والتعرف، والتضخيم والتطويل لمواضع مثيرة في الجسد، ثم عن المال والصحة والتشجيع على عشق العلاقة مع نفس الجنس، أبدأ بحذف مثل تلك الرسائل، فتقابلني رسالة تقول (افتح هذه) وما أن ضغطت على الزر حتى بدا الكمبيوتر العمل على تنزيل صورة مع الرسالة.

شاب مراهق أسمر قليلاً، لا شك أن سمرته هي من طول عبثه بالشمس ولعبه، متوسط البنية، أشعث الشعر، لكنه ليس بشعاً ولا عابساً ولا بشعر مستعار، لا تبدو عليه سعادة، عار تماماً إلا من سروال سباحة صغير ضيق، نحيف يجلس سانداً ظهره إلى شجرة متوسطة الحجم، وبرغم نحافته وبروز عظام صدره إلا أن هناك عضلات صغيرة مرصوصة ودقيقة مشدودة على ذراعيه وحول ثدييه، شقي قوي، وحين اكتمل تنزيل الصورة يخاطبني وكأنه يراني، أركب سيارتك واذهب إلى المتجر الذي ستجد عنوانه أسفل الصورة، ثم قم بنقل الأغراض الجاهزة لموقع سكن الشخص الذي ستجد عنوانه بعد هذه الكلمات أيضاً، إياك أن تتردد أو تتأخر، لا تقلق ولا تنزعج ولا تسأل، الأمر عاجل وسيكون العائد عليك كبيراً، وأنتبأ أن تشتري سيارة جديدة، للتخلص من صديقتك السمينة العجوز البائسة.

أتوقف أمام المكان الموصوف، وقبل أن أوقف محرك سيارتي، أشار لي أحدهم بعدم النزول منها، وسرعان ما تم وضع الأغراض عند مؤخرتها، المانية الصنع بلون بني يخالطه ذهبي لكنه غامق نوعاً ما، سلط الرجل الذي أحضر الأغراض عينيه صوبي ففتحت زجاج النافذة الكهربائي، ناولني ورقة عليها عنوان يتوافق مع العنوان الذي التقطته من الانترنت، ضرب على مؤخرة السيارة برفق وأشار لنا فسارت سيارتي مبتعدة عنه، وما هي إلا نصف ساعة أو أقل قليلاً حتى وصلت المكان المخصص، نادى شخص على اثنين اخرين اجتمع ثلاثتهم وبدأوا بتنزيل الأغراض الخفيفة البسيطة الغامضة من مؤخرة سيارتي القديمة، قال رئيسهم الذي يرتدي ملابسة رسمية وشبه عسكرية،

سيجهزون لك شيكاً، ولم يزد عن ذلك بكلمة أخرى توضح لي ما أنا فاعله، ثم أضاف قائلاً: انزل وتقدم صوب الغرفة ذات الزجاج الكثيف الغامق في آخر المخزن، لا تقل لأحد أن عمرك جاوز السبعين.

ألعن الشيطان الذي أضلني حين وجدت باب المخزن الموصوف مغلقاً، أدركت أن علي أن أعود مسرعاً إلى القطة التي طال انتظارها لي، أو إلى صديقتي العجوز، لكن بياض الثلج على جانبي الطريق أذاب الكثير من حقدي وأنساني الغباء.

زارني صديق عراقي
Iraqi friend visited me

تمكن الأديب العراقي أن يزورني في عمان للمرة الثانية، أنسنته الأيام والثقافة والفن والأدب. يقاربني في العمر، ربما على أبواب السبعينيات، تركته يستريح في اليوم الأول من زيارته لمنزلنا دون أن نتطرق إلى حال العراق، حاول أن يقيم في إحدى فنادق عمان المتوسطة، وفنادق عمان ما أكثرها، وعمان كأنها خلقت للفنادق والسياحة، خصوصاً في العقود الأخيرة، وبعض فنادقها رخيصة أو مقبولة التكاليف للفقراء والعاديين أما المتوسطة فلرجال الأعمال، وما أكثر الزائرين العاديين من العراق، أما عن رجال الأعمال العراقيين فلا تسأل، تجدهم أمامك وخلفك وحولك في المدن الصناعية أو قاعة البورصة، لم يقاوم رغبتي في استضافته بمنزلنا، مع ان ذلك أقل راحة له، تعب كثيراً في سفره وربما في حياته، تنهد بعمق ثم قال: أخيراً عدنا إلى عمان بعد تزاحم الأحداث الجسام، والأردنيون أكثر الناس معرفة بمعضلة العراق وحتى بمشاكل أهله، ثم أضاف قائلاً وكنا على انفراد، وفي نغمة بين الهمس والهمهمة

-الوضع اختلف ايها الصديق العزيز، اعلم أنني أستطيع تحمل تكاليف الإقامة في فندق متوسط في عمان، وتعرف أن كل العراقيين وأنا منهم يحبون قاع المدينة، ولنا أو لمعظمنا تاريخ وتواصل مع الأردن وأهله.

-أفهم ما تقول، لكنك ما دمت في عمان فلتنس الأمس، ولنحاول أن نستطلع أخبارها وأدباءها وأماكنها وآثارها من جديد. وسيارتي العجوز ستتكفل بتنقلاتنا وتحركاتنا، وما زلت قادراً على قيادتها، أعرف طرق عمان السريعة الجديدة والدائرية واللولبية، وطرق النجاة والهرب من الزحام.

-أقيم عندكم بشرط أن تعطيني الحق في الانتقال لأي فندق أو مدينة أخرى في الأردن أي وقت أشاء، والأردن بلد عزيز على كل العراقيين.

-أوافق مبدئياً على رغبتك، لكن ألا توافقني على أن صحتك هذه المرة أفضل مما كانت عليه قبل سبع سنوات، وربما لأنك مطمئن على أهلك في بغداد على الأقل في الغذاء والكساء، ولم تعد بحاجة لأي مساعدة من أحد هناك أو في عمان.

كان حنون يجلس بجانبي في السيارة، يستنشق أنفاساً طويلة وعميقة مستمتعاً بهواء عمان اللطيف في أواخر أسابيع فصل الربيع، مقارنة بجو بغداد في السنوات الأخيرة، لا أدري لماذا خطر ببالي أن أريه مكاناً قد يعجبه، فكانت مباني إحدى المؤسسات التجارية الكبرى في عمان نموذجاً لما وصلنا إليه من تطور، اقترحت عليه أن نقوم بزيارة المبنى وبعض المكاتب، صارحت صديقي أنني لم أعد أعرف أحداً في ذلك المكان بعد انقطاع لقائي مع زميلة عملنا معاً قبل سنوات عديدة، لأنني تقاعدت منذ عشرة أعوام، تواصل لقاؤنا بعد توقفي عن العمل، وهي تمثل المرأة العمانية الحديثة، تحب الحرية والديمقراطية والسلام والتمتع بالحياة، وجمال ملابسها وحسن قوامها يظهرها أصغر بكثير

من عمرها، المبنى حديث وتصاميمه فاخرة، به مناظر واقسام مثيرة للزائر. يقا طعني قائلاً

- هل تستطيع أن تحدثني عن صديقتك تلك؟ إن المرأة العراقية في الغالب انطوت على نفسها خلال السنوات الثلاثين الماضيات. وبدأت تتململ بعد دخول الأجانب لبلادنا.

بعد الغداء في اليوم الرابع لزيارته كنا أمام مبنى المؤسسة الساحر، أشجار مقزمة وفازات ضخمة نصبت في الزوايا والأركان أمام المبنى وفي مدخلها، وحتى إن الشارع الذي تقع فيه، تزيّن بأجمل ما وجد على وجه الأرض من نباتات وأشجار، بإمكانها العيش في جو الأردن الطبيعي، لم يصدف أن شاهدتها من قبل في عمان، وربما لمحدودية علاقتي بالناس وبالموسرين فيها، صديقي مجيد يتنفس بعمق حين وجد نفسه أمام المبنى العتيد، ووسط جماليات طبيعية، قال عنها إنها محمية نادرة الوجود، وتمنى أخذ صور تذكارية، ولم يكن معنا كاميرا، لكنه رغب أن يتوقف عند كل نبتة أو إناء، شاهدنا رسومات فنية من فنانين أردنيين، وقليل من عراقيين، قال ليت أمانة عمان تخصص هذا الشارع للفنانين من كل الأقاليم العربية، ثم تساءل: لماذا نفتقد الفنانين المصريين والسعوديين؟ لم أستطع إجابته على سؤاله، وربما حاولت القفز عن هذا الموضوع. نقف على البسطة الأولى التي تقود للمدخل الرئيس، أحاول أن تراني فأوشر لها، أرفع يدي بتحية حيية، وعادة ماتوقف سيارتها في جانب قصي من المرأب المقابل، حتى تتمكن من المغادرة أي وقت تشاء، وبعد أن تستأذن وتأخذ ساعة الاستراحة وقتها، تقترب محيية من بعد، لا تتوقف معي ولا تحادثني، تصعد الدرج

للطابق الثاني، لا تستعمل المصاعد الكثيرة والسريعة المصفوفة أمام الزائر للمبنى، أتبعها إلى حيث اعتدنا الجلوس، أدخل فأجدها وحدها، أو تفهم صديقتها، وربما لتفاهم بينهما، نتركنا وحدنا لنصف ساعة، تقطع سيدتي الجلسة قبل عودة صديقتها، قلت لها مرة، ربما تذهب لمكتبك هي الأخرى؟ ضحكت وأدارت وجهها صوب الأبراج الجديدة العالية في عمان، قالت إنها متزوجة وعندها طفلان، هي أم تحب أطفالها وتحرص على منزلها ووظيفتها وشخصيتها وحريتها وعلى اقتناء زوجها. يقول ضيفنا مجيد

-ربما تكون عراقية الأصل، أو درست في بغداد، أو في بلد غربي.

-لم ندخل في تفاصيل ذلك، لكن حسب علمي هي امرأة مثقفة ومن طبقة اجتماعية راقية، تفهم جيداً ما عليها وما لها، قالت لي أكثر من مرة "اشعر بوجودي حين أخلو إليك". يقول مجيد وعلى شفتيه آثار ابتسامة خبيثة

-أفهم أمثال هؤلاء الناس، العالم كله يسير بخطوط معلنة وبخطوط خفية بالتوازي وفي نفس الوقت على مدى العصور بغض النظر عن المألوف والمقرر، والمطلوب والمكروه والمحبب، تحسّ بسعادة وبأهمية وجودك حين تكون بصحبة امرأة ودود، وخاصة إن أمسكتما خطوطاً لقراءة تفاصيل فكر الآخر.

-روحها الخلاقة، وعقلها المنفتح، جعلاها تحتويني مع انني حاولت أن أكون وعاءها، تدخلني إلى مرافق وموانئ لم أتوقع أن أجدها في أي امرأة أخرى.

حين كنا نجلس لنلعب طاولة النرد على شرفة منزلنا، كنا نتذكر أموراً كثيرة حصلت في بغداد، لكننا نسينا أموراً أخرى أكثر، لكنه مازال مسحوراً ومندهشاً من كل ما يشاهد من مناظر حداثية، ومواقع أثرية في الأردن، يقول إنها تدلل على تقدم الأردن الفقير عن بعض الدول العربية الغنية بثرواتها، ثقافة وزراعة ونمواً وإبداعاً، يهمهم أثناء سيره كخرف أو ثمل، وسمعت بعض اقواله "يا إلهي هل يمكن أن تتطور بلد ما بهذه السرعة؟،

في يوم آخر ضل طريقه فقرر أن يسأل أهل الفيلاّ الصغيرة التي خلفه، يقول إن اتجه صوب الفيلا العريقة الجميلة المجاورة، فيرى امرأة، ومجيد يحب التحدث مع النساء، سألها عن طريقة الوصول للطريق الرئيس، أشارت له بالاقتراب، وقفا طويلاً وكأنه نسي غرضه، عرف أنها امرأة عراقية ثرية تقيم في عمان، قلت لضيفي

– لا بد أن نتناول طعام الغداء هذا اليوم في منزلنا حسب اتصالات زوجتي المتكررة على الهاتف النقال.

فأجاب أعطتني المرأة العراقية رقم هاتفها، لم أشأ أن أسأله عن مدى المساعدة التي يتوقعها من امرأة عراقية وهنّ كثر في عمان. كنت أخطط لأريه مفاجآت إضافية في مدينتي عمان، لكنه اصرّ على التحرر والانتقال لفندق لمتوسطي الدخل.

أهل بيت سيرا حصدوا الذرة

BEIT SIRA HARVESTED THEIR FIELDS

كان سامي في الثالثة عشرة من عمره وعمر صديقته وداد في الثانية عشرة، لم يبرز ثدياها بشكل واضح بعد، علمها سامي ركوب الحمير، تعشق الحرية وتحترم التراث، وكان الاقتراب من سامي واللعب معه أحلى الأوقات عندها، وكلما سنحت الفرص لهما ما دامت تجد حجة تنجيها من عقاب والديها، يحبان ركوب الأتان التي دربها سامي طويلاً حتى أصبحت رفيقة له وأليفة، تنفذ الكثير من أوامره في المشي والجري والتوقف، تطوق يدا وداد وسط سامي، وتقول له كم أحس بأمان وأنا ملتصقة بك، ثم تطلب منه أن يحث الحمارة على الجري كالخيل، أسرع! أسرع! ويعلو صوتها قائلاً: دعها تسابق الريح، تقرب واداد وجهها وأنفها من رقبة سامي، وكانت أطول منه قليلاً، تتنفس بقوة تجعله يحسّ لذة ذلك الدفء شتاء، والحارق صيفاً، تتماوج أنفاسها المندفعة من أعماق صدرها، وكأنها هي التي تركض وليست الحمارة، فتداعب أذنيه ثم أسفل عنقه بنفخات من فيها عامدة، يجفل وينفض رقبته وهو راغب في المزيد، يضحك ويضحك، ثم تعلو ضحكاتها هي الأخرى، وحين ركبا غصن شجرة التين الضخم مرة، لمح سامي أنها لا ترتدي سروالاً، ساعدها على سرعة الستر وتغطية الجزء المكشوف من فخذها، وفي اليوم التالي كان سامي ووداد في المرج الواسع المزروع بالذرة البيضاء.

بيت سيرا تقع على الخط الفاصل بين سهول فلسطين الساحلية وعند موطئ أقدام جبال القدس، وسمع الكثير من القصص عن والده ومن كبار السن في القرية، أنه إن مرض أحد مرضاً يصعب علاجه بالطب العربي، وخاصة في العينين أو الأذنين، فإن أقرب اطباء العيون لقريتنا كان في مدينة القدس، وبالذات في موقع يقال له "البَقعة" في قلب القدس القديمة، يتخصص بعلاج العيون مجاناً، يذهبون مشياً على الأقدام أو يركبون دواب الحمل لسفر ست ساعات، ولم يكن هناك أي طريق معبدة في الجبال الوعرة، قبل فتح الطريق المعبد إلى مدينة رام الله، وهي التي تربط رام الله بمدينة الرملة واللد وصولاً إلى يافا على ساحل فلسطين مروراً بقرية بيت سيرا.

"بيت سيرا" قرية صغيرة وادعة لا تظهر على خريطة فلسطين عادة، ولا يكاد يذكرها أو يعرف عن عراقتها في التاريخ أحد، فهي تقوم على تراث كثيف من الآثار، وكنوز لم يحاول أي بشر أن يكشفها من قبل، وفي عام ١٩٥١ لم يتجاوز عدد سكانها ألف نسمة من رجال ونساء وأطفال، بنات وأولاد، وربما كان بها ما يقارب نفس هذا العدد من الحيوانات.

سهل بيت سيرا الغربي لزراعة الحبوب يقتات أهل القرية عليها، وبيوتها الحجرية والطينية الضاربة في أعماق التاريخ هي الأخرى عند أصابع أقدام جبال القدس، أما أشجارها فتزين الجبال الوعرة شرقي القرية، ينعم أهلها بعيش هادئ صيفاً على ثمار التين والصبار والعنب، ويخزنون ثمار الزيتون مملحاً أو يعصرونه بطرق بدائية يدوية للحصول على حاجتهم من الزيت لشهور الشتاء الباردة، يسهرون

ويمرحون وتحمرّ بشرة وجوه معظم أهالي القرية صيفاً، ويقبعون في بيوتهم احتماء من البرد شتاء، ثم تبدأ حمرة وجوههم تخبو قليلاً قليلاً، وتذوب أغلب الدهون التي اكتنزتها أجسادهم صيفاً، لعدم توفر الأغذية الكاملة أو لعدم تمكن معظمهم شراءها من المدن البعيدة، يتزاورون ويشربون الشاي القليل أو القهوة يطبخونه على نار الحطب من تقليم أشجارهم، أو يتجمعون للسمر وللاحتفاء بضيف أو غريب يزور القرية في مضيف، وقد يحضر شاعر شعبي مع ربابته ليروي لهم قصصاً من ألف ليلة وليلة، أو سيرة الزير سالم أو حرب البسوس.

سامي لا يختلف عن أولاد القرية، إلا أنه ولد هادئ كتوم مسالم، مع أنه يلعب ويعبث ويحب ويكره، يغيظ، وينافس، يتفوق ويتأخر، كل ذلك بهدوء، ويحرص على أن لا يظهر عليه أي صفة من تطرف أو تفوق أو جهل أو فتور أو خور. وبالاختصار كان حريصا على الحياة وربما أقرب إلى الجبن منه إلى الشجاعة. لا تلومه لو سمعت وجهة نظره، سألناه مرة لماذا تحمل خنجراً صغيراً مخفياً دائماً عن أعين الأولاد والرجال؟

– والدي كبير في السن ومقعد، ولا يستطيع أن يمنع عني اعتداءات الأطفال الأقوياء، فهذه تقدم لي بعض الدعم. لكن سامي تدب فيه الشجاعة حين تكون وداد معه، وخاصة حينما يمارسان لعبتهما المفضلة، حيث يركبان الأتان أو يمتطيان غصن شجرة التين الكبيرة، تشد على خاصرتيه وتلتصق به في الحالتين، أو يتقابلان فوق الغصن، تناوله طعاماً أو يضحكان ويتقاربان، تقول له عيناك واسعتان هذا اليوم، أو يقول لها شعر رأسك غير نظيف، فتغتاظ منه وتجيبه بأنها غسلته قبل

أربعة أيام، ثم تتحسس شعرها وتقول له، تفضل إلمس بنفسك النظافة، هل ترى قملاً أو صيباناً أو أي غبار يعلق بشعري، أو بجلدة رأسي؟ يتلمسه وتغوص أصابعه في ثنايا شعرها الكثيف البني، فيزداد تهدله على كتفيها ويغطي جزءاً من فتحة قميصها الواسعة، في حين تواصل مد عنقها والاقتراب من سامي، بل وتحني عنقها له كي يتأكد من نظافة شعرها، سامي يحسّ بنشوة غريبة، ولكنه لا يشهد لها بنظافة الشعر أو الرأس، وبل ولا يعلق، بل يكتفي بهزّ رأسه، ويعود لرد شعرها ويشتركان في لملمته خلف رقبتها وأذنيها.

تمدد الاحتلال الصهيوني وأوشك على ابتلاع "بيت سيرا" حاول الغزاة تهجير أهلها ليصبحوا رقماً صغيراً إضافياً لأكثر من مليون لاجئ اضطروا لهجر مدنهم وقراهم عام ١٩٤٨، لكن وبرغم قلة عدد رجال "بيت سيرا" ونسائها القادرين على حمل السلاح إلا أنهم صمدوا في مواجهة الترويع من جيران السوء، احتملوا الجوع والعري والأمراض وشح المياه، هزلت أجسادهم، وذابت شحومهم، وشحبت وجوههم، وطوت خصور الأمهات والصبايا في قرية بيت سيرا، معظمهن أصبحن كأعجاز نخل تتحرك ببطء، يسرين كفزاعات تحركها الجن والسحرة والأمل في أزقة ضيقة متعرجة، شوارع ملآى بالتراب والخرافات والأطلال، ويفئن إلى أشجار الزيتون العتيقة الرومية على أطراف القرية للراحة أحياناً.

تصارع أهل قرية بيت سيرا مع الغزاة على الشريط السهلي الذي ورثوه عن أجدادهم، تملكوه رسمياً لكن حكومة الانتداب لم تقبل تسليم القرويين أي صكوك رسمية لأملاكهم، خدموا أرضهم وفلحوها على

مدى القرون والسنين، وظلوا مطالبين يدفع ضريبة سنوية عنها، اعتنوا بتلك الموارس من الأرض، اعتزوا بها وأعزوها، تشبثوا بتلك الشرائط من الأرض السهلية الخصبة، واعتاشوا على الحبوب التي تنتجها كل عام، كالقمح والذرة والشعير والقثاء وبعض الخضار والبقوليات،

وفي صيف عام ١٩٥١ اتفق الناس بعد صلاة العشاء على أمر. سيخرج أهل القرية، كل القرية، الصغير والكبير والحيوانات، الذكر والأنثى سيخرجون بعد الفجر وعلى الندى لقطف موسم الذرة، سبق وزرعوها مع غروب الأيام أو بعد الفجر وقبل طلوع الشمس، وسيحصدون طعامهم وطعام حيواناتهم قبل حضور دوريات العدو لمرصد "راس أبو عصفور".

عمل سامي لأول مرة في حياته مع أفراد العائلة التي استزرعت أرض والده مخامسة، خمسان لهم وثلاثة أخماس للمستزرع، كانت وداد تحمل سلة القش قرب سامي، وكلما قطع ما يقارب عشرة أكواز من الذرة، أسرعت وداد بنقلها إلى الأكياس الكبيرة عند طرف المارس الشرقي.

بدأ أهل "بيت سيرا" بقطف الجزء الغربي القريب من مرصد العدو، مسرعين قبل بزوغ قرص الشمس، وقبل وصول دورية المستقوين بأسلحتهم الأوربية الحديثة. وفي اليوم التالي لنجاح أهل القرية، قال سامي لوداد في طفولة بريئة

- ألا ترين؟ لا ينفعنا إلا اتفاقنا ومشاركاتنا وسرعتنا في الإنجاز!

- ألم أساعدك؟، وشاركت معك عائلة "أبو فؤاد" في القطف؟ ثم أردفت تقول: ليت والدي يقوى على شراء بندقية حتى أتعلم عليها

وأحميك يا سامي وأنت تقطف الذرة أو سنابل القمح من أرضنا القليلة العزيزة الباقية.

طلقات نار من رشاشات تنطلق صوب المرج من المرصد الغربي المرتفع، والكاشف لمعظم ما يجري من حركة في المرج أسفل منه، صاح الشيخ صالح، " انطرحوا أرضاً واحنوا ظهوركم بين أعواد القصب الثابتة في أعماق الأرض"، نظر سامي من بين أعواد الذرة التي تصرّ على الصمود برغم قطع رؤوسها، ثم مدّ بصره على سطح الأرض أمامه وخلفه وحوله، فلم ير إنساناً واقفاً، وفجأة صدر نداء ملهوف يستغيث

- جملي! جملي!، بعيري، بعيري! أصيب جملي يا ناس، هل من يحمل سكينا؟ نريد ذبحه حتى لا يصبح فطيساً، فأجابه الحاج ذياب سنأكله حلالاً زلالاً حتى لو لم نذبحه، ثم علق أبو حرب بسخرية مريرة: مرت أسابيع لم نذق فيها طعم اللحم، وشاء ربك أن نطعم لحماً هذا اليوم وغداً. سنعتبره كالصيد ونذكر اسم الله عليه، فصاح أبو عوض المعروف بهزله وطيشه،

- أتعني أنه استشهد، وأضيف إلى قائمة الموتى ممن قاوموا الغزو؟ وعلا صوت واحد من كبار السن من العاملين في الحصاد

- اطمئن لن تأكله الضباع ولا الثعالب ولا الذئاب ولا الذباب، ولن ندفنه إلا في بطوننا وعقولنا، مناجلنا كلها سكاكين.

كانت خطة أهل قرية بيت سيرا جاهزة، توجه خمسة من شباب القرية إلى شمال المرج، وخمسة آخرون من جنوبه، تقدموا غرباً يتسلقون الجبل ويحتمون بالحشائش البرية الطويلة وبالصخور العالية بعيداً عن مرصد العدو السامق، حتى استحكموا بمحاذاة دورية العدو عن شمالها

وعن جنوبها، وعلى نفس خط العرض تقريباً، وبدأوا يشاغلون الغزاة حتى يتمكن أهل القرية من إنهاء قطف مزروعاتهم في أراضيهم، بدأوا يتنقلون بين الصخور الكبيرة، يتحركون ويلفون يودورون، دون أن يكتشف العدو عددهم أو مرابضهم، وهم يطلقون رصاصات متفرقة من بنادق عثمانية قديمة، حفظها بعض من أهل القرية وأخفوها عن مفتشي عساكر الإنجليز الذين اعتادوا على الحضور المفاجئ للتفتيش عن السلاح في القرية، كلما وردت لهم أنباء عن وجود بعض البنادق في متناول بعض الناس. كان الواشون من غير أهل القرية، ومع تواجد عائلات وحمائل مختلفة في القرية إلا أن التعامل مع الإنجليز أو التعاون معهم كان خطاً أحمر قاتل، يتناوشون ويختلفون، لكن لا يفكر أي نفر منهم أن يعمل ضد قريته بيت سيرا، ولا أن يقبل التجاوب مع جيش الاحتلال البريطاني ضدّ أي فرد من القرية، وكلما زاد أزيز رصاص العدو من رشاشاته كلما علت زغاريد النساء والبنات يشجعن الرجال على العمل في قطف الذرة وظهورهم محنية ومما كن ينشدنه (ارضي وعرضي للأحباب، والخاين ماله جواب، ابنك ورزقك ما تحميه ، إلا همة الشباب).

أسرع سامي إلى وداد، واتفقا على اللقاء في بستان أهل وداد، كررت وداد رغبتها في حمل البندقية والتدرب عليها، قال لها سامي

– لا أريدك أن تحملي بندقية يا وداد، يكفي أن تكوني قادرة على حمل ما أستطيع قطافه من عرانيس الذرة، لتوصيلها للأكياس التي سيحملها الجمل، وأن تعودي سالمة، هيا نركب جذع شجرة التين الكبير في بستانكم الصغير كعادتنا كلما التقينا هنا. تبتسم وداد،

وتنفرج أسارير وجهها.

وحين أعاد سامي سرد ما جرى في اليوم السابق، اعتز والد سامي بابنه، وشرب الشاي معه بحضور بعض من رجالات القرية، لأن أهل قرية بيت سيرا أفلحوا في قطف جميع ثمار الذرة من أراضيهم صيف ذلك العام.

كتبت بالصيغة الأولى عام ١٩٦٢

ملاحظة: القصة والوزارة خيال وحلم ولم يحصل ما جاء في القصة على أرض الواقع.

Author's words

I'd like to begin with thanks to God for once again blessing me with the vision and creativity to write literary books, which will have a positive impact on people's lives and minds now and then. The literature explains the history writings. When the story is real, then it is addition to published history or explains the atmosphere of the incident in a better way and with different attractive style of writing. But if it is fiction, the writer cannot isolate or pull himself from his community and residence completely, so the story will form an idea about the incidents that happened or claimed in the story according to writer minding.

My goal in publishing is to share my thoughts and efforts with readers, the same way I used to read to others in my childhood and, in later years as well as entertainment at present.

I found myself devoted and totally involved in my writing as a career. Except my deceased dear and beloved father who died since over half a century ago, I do not see any one who ever encouraged

me or even inspired me. My father implanted the seeds of literature loving and reading in me. Then I took the mission of educating myself by myself seriously. He made it the same way to himself with the very limited sources of knowledge and books. My way was almost the same with little difference due to time change, but the poverty and short of books were the common factor.

Everybody around me formed an obstacle to what I need. But because I can create ideas, overcome difficulties, and can make things happen, I worked myself out my way alone and after a long long sufferings and struggle to own the modest financial possibilities which enabled me to devote more of my effort and time to my career in writing and to improve and widen my life and mind frames. I spent long times in school library. I worked very hard to buy some books, and used all kinds of tricks to convince my friends to let me borrow books from them.

I kept hiding myself and refraining from telling anybody about what I want to be. I wanted to be

a well known writer. And that is why I hid all my writings from anybody until ١٩٩٢. In fact I tried to publish some of my stories earlier in the seventies, and made it partially as testing, but under funny names or girls' names. But I wasn't myself satisfied with the quality of my stories when I compared it with the better ones from others.

Today I would say to my reader that I tried to brief my feelings this year and for the first time in English after eight books before this volume. I hope to meet you again with the tenth new book after this one, Inshallah!

Nazek

المؤلف في سطور- نازك ضمرة

نازك ضمرة قاص وروائي ومترجم أردني من أصل فلسطيني، عضو رابطة الكتاب الأردنيين، وعضو اتحاد الأدباء العرب، ولد عام ١٩٣٧ في قرية بيت سيراً، ويحمل ماجستير إدارة أعمال من أمريكا عام ١٩٧٦ . عمل مدرساً في مطلع شبابه ثم مترجماً ، وبعد دراسته في أمريكا عمل مديراً لأكثر من شركة في السعودية والأردن ، أثناء ذلك تجول كثيراً في العالم شرقه وغربه .

تأثر في طفولته بوالده الذي كان معلماً وخطيباً في المسجد، حفظ على يديه الكثير من الشعر والقرآن والأدب.

كتب وما زال يكتب للكبار وللأطفال،صدرت له مجموعته القصصية الأولى(لوحة وجدار)عام ١٩٩٤، ثم المجموعة القصصية التالية (شمس في المقهى) عام ١٩٩٦ ، ثم رواية الجرة عام ١٩٩٧، وبعدها رواية(غيوم) عام ١٩٩٩، ومجموعة قصص قصيرة جداً بعنوان (بعض الحب) عام ٢٠٠٢ ثم كتاب حكايات عالمية للأطفال عام ٢٠٠٤، ثم روايته الثالثة (ظلال باهتة) عام ٢٠٠٦ ، ومجموعة قصص قصيرة بعنوان (المشلول والجرف) عام ٢٠٠٨

يكتب أو يترجم مواد للأطفال أثناء ذلك و ما زال لديه الكثير من المخطوطات روايات وقصص للكبار وللأطفال، ومترجمات من الشعر والنقد والقصة عن اللغة الإنجليزية نشر معظمها في الصحف المحلية والعربية أو المجلات.